14 me Année No. 659

Lundi —18—2—1946

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
ص
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٦٥٩ « القاهرة فى يوم الإثنين ١٦ ربيع الأول سنة ١٣٦٥ — ١٨ فبراير سنة ١٩٤٦ » السنة الرابعة عشرة

حمـــام الحرم

للأستاذ عباس محمود العقاد

أشرت فى مقالى السابق عن الرحلة الحجازية إلى حمام الحرم فقلت عن أعجب ما سمعته ورأيته من شأنه « إنه يطوف حول الكعبة ولا يعلو عليها فرادى ولا جماعات » .

« وقد سمعت بهذه الخاصة فى حمام البيت قبل أن أراه ، فلما رأيته فى طواف العمرة وطواف الوداع تحريت أن أتعقبه فى كل مذهب من مذاهب مطاره فإذا هو كما سمعت يطوف ولا يتعدى المطاف إلى العبور » .

وهذه خاصة لابد لها من سبب مفهوم ، ولابد من استقصائها فى جميع أحوالها قبل التيقن منها وقبل تعليلها بالخوارق التى لا تقبل التعليل ، فإن الذهن لا يقبل الخارقة إلا إذا ضاقت به علل الطبائع التى أودعها الله فى خلقه وتواترت بها المشاهدة فى جميع الأحوال ، وبخاصة حين لا يكون هناك مقتضى من حكم الدين ولا حكم العادة لامتناع الطيران فى فضاء الكعبة أو أى فضاء مقدس مصون ، ولا معابة على فضاء السماء فى كل مكان أن تحلق فيه الطيور أو تمر به الطائرات .

وقد شغلنى أن أتيقن أولا من تطابق الأقوال على اطراد هذه الظاهرة ، وأن أجرب حماما غير حمام الحرم لأرى كيف يطير إذا أطلق فى جوانب الكعبة وحده ، وأن أجرب طيراً غير الحمام من القمارى أو العصافير أو فصائل اليمام ، لأن الجوارح قد يصرفها النظر إلى فرائسها عن تحقيق التجربة بما يفيد الحرية فى اختيار جو الطيران ، وخطر لى قول الطائى :

يسقط الطير حيث يلتقط الحب ... وتغشى منـــازل الكرماء

ولكن الطير يسقط حيث يلتقط الحب ولا يقصر طيرانه على مواضع التقاطه ، فإذا كان حمام البيت قد تعود أن يلتقط غذاءه فى الماشى التى حول الكعبة فليس ثمة ما يمنعه إذا صعد فى الجو أن يتجاوز تلك الماشى إلى ما جاورها ، وهو قريب من قريب .

وأوصيت بعض رفاقنا أن يرقبوا هذه الظاهرة فى زياراتهم المتعددة ، وهم يزورون البيت متفرقين حسب النوبة التى يفرغون فيها من العمل فى اليخت أو فى الطوافتين . فلما عادوا جميعاً كُفيت مؤنة التجربة أو التجارب الكثيرة التى كان لا بد لنا منها قبل التيقن من تلك الظاهرة وتعليلها بما يكشفها على جليتها ، لأن ثلاثة منهم اتفقوا على أنهم شاهدوا الحمام يطير أحياناً فوق الكعبة وإن لم يكن ذلك مطرداً فى جميع الأوقات ، وممن شاهدوا ذلك إمام اليخت الملكى المحروسة وهو شاب مهذب أديب حسن المرفة بالدين حسن التفسير لأحكامه وفروضه ، فانه قال إن الحمام يطير فوق الكعبة ولكنهم يلحظون فيما يطير منه عليها شيئاً من الضعف والانكسار ، كأنه مريض يلتمس

الشفاء ببركة العبور على ذلك المقام ، وهذا وحده يبطل ما ذهبوا إليه من تلك الملاحظة ... لأن طالب البركة لا يلتمسها بما يخالف حرمة المكان فيما جرى عليه عرفه أو عرف بداهته الفطرية ، فان كان طير البيت يتجنب الطيران فوق الكعبة تقديساً لها كما يتخيلون فليس من شأنه أن يلتمس البركة بما يخالف التقديس .

وقد أصبحت الظاهرة معقولة بعد ما سمعته من تلك المشاهدات بغير خارقة أو التجاء إلى إغراب .

حتى ندرة الطيران فوق الكعبة لا تستعصى على التفسير الموافق للعادات والمشاهدات ، فان الحمام الأليف يجتمع إلى أسرابه في ملاقط الحب ، ولكنه لا يطير أسراباً أسراباً كالفصائل البرية من نوعه حين تهاجر من مكان إلى مكان . فإذا جاوز الحمام الأليف مساقط أسرابه فإنما يطير زوجين زوجين أو فرداً فرداً في التماس أليفه الذى يغيب عن نظره وسط الأسراب ، وهذه العادة خليقة بأن تفسر لنا ندرة الطيران على بعد من المماشى التى يتجمع فيها الحمام كما تفسر لنا بطء حركة الطائر الذى يخرج على الطريق فى بحثه واستطلاعه ، لأنه لا ينوى الطيران إلى بعيد حيث يعبر فضاء الكعبة لينظر حواليها إلى أليفه المفقود .

على أن جمال المعنى الذى يتمثل فى حمام الحرم لا ينقص ذرة بطيرانه هنا أو طيرانه هناك ، لأن معناه الجميل هو الأمن فى حماية الإيمان لا فى حماية الحراس أو حماية الأبراج والسدود . فهذا أضعف الطير يراه الجائع والطامع ولا يمسه بسوء ، وهو يطمئن إلى هذا الأمن بطبعه وإن لم يفهمه بعقل فيه يفهم أمثال هذه الأمور ، فلا يجفل من الإنسان ولا تراه يطير منه إلا طيران الدلال واللعب لا طيران الفزع والاضطراب .

* * *

ولم يزل للحمام نصيب من القداسة أو الطهارة منذ آمن الناس بالدين على سنة الوثنية أو سنة التوحيد ، وكان هذا النصيب ينفعه حيناً ويجنى عليه فى أحايين ، فكان قربان الحمام مفضلا فى شريعة موسى على القرابين من سائر الطيور ، وكان الأغريق يتقربون إلى الزهرة ربة الحب عندهم بالحمام الأبيض أو باليمام وما إليه ، ولا يزال السحرة فى أيامنا يخدعون السذج بالحمامة البيضاء أو الحمامة السوداء ، ويتوسلون بالأولى فى استعطاف الملائكة والأرواح الكريمة ، وبالأخرى فى استعطاف الشياطين والأرواح الخبيثة ، بل لا يزال أناس من المعاصرين يعتقدون فى الحمام اعتقاد الأقدمين الذين زعموا أنه أقدر الطير على استجابة داعى العشق والغرام ، وأنه من ثم طعام صالح للأزواج وهدية صالحة فى الأعراس .

والشعراء يضربون به المثل فى الوفاء والغناء ، وبعضهم يسمى هديله بالبكاء لفرط الحنين إلى الالفاء والأحباء ، ويجارى الشعراء فى هذا الرأى بعض من كتب عنه من الطبيعيين والمشغولين بتسجيل عادات الطيور .

أما الصواب فهو ما قاله المعرى حيث قال :

أبكت تلكم الحمامة أم غنت على فرع غصنهـــا المياد

وهو أيضاً ما قاله حيث قال :

ظلم الحمامة فى الدنيا وإن حسبت
فى الصالحات كظلم الصقر والبازى

ويؤيد المعرى فى هذه الملاحظة هواة الحمام من العرب ، وأشهرهم مثنى بن زهير حيث يقول فيما رواه عنه الجاحظ فى كتاب الحيوان : « ... لم أر شيئاً قط فى رجل وامرأة إلا وقد رأيت مثله فى الذكر والأنثى من الحمام : رأيت حمامة لا تريد إلا ذكرها كالمرأة لا تريد إلا زوجها وسيدها ، ورأيت حمامة لا تمنع شيئاً من الذكورة كالمرأة لا تمنع يد لامس ، ورأيت الحمامة لا تزيف إلا بعد طرد شديد وكثرة طلب ، ورأيتها تزيف لأول ذكر يريدها ساعة يقصد إليها ... ورأيت حمامة لها زوج وهى تمكن ذكراً آخر لا تعدوه ... ورأيتها تزيف لغير ذكرها وذكرها يراها ، ورأيت الحمامة تقمط الحمام الذكور ورأيت الحمامة تقمط الحمامة ... » .

إلى آخر ما قال وهو صواب :

ولا ندرى هل ذم الحمام أو أثنى عليه حين قال إنه يشبه الناس فى أطواره ذكوره وأناثه . فقد يكون ذلك غاية الذم فى عرف قوم وغاية الثناء فى عرف آخرين !

* * *

ولسنا نختم هذا المقال قبل أن نستوفى سيرة الحمام كما عرضت

خلال الزيارة الحجازية إما بمكة أو خلال الطريق .

فقد كان الحمام ذات عشاء بعض صحاف المائدة على اليخت « المحروسه » أثناء عودته الأولى من جدة إلى السويس ، فعلمنا أن جلالة الملك عبد العزيز لا يأكل منه ولا من السمك على اختلافه إلا فى النادر القليل .

وأراد صاحب السعادة مراد محسن باشا أن يوفق بين رغبة الملك عنه ورأى بعض الفقهاء فى تحريمه ، فقال : إن أناساً من المتشددين يحرمون أكل الحمام الذى يربى فى بروج الحقول والغيطان

فصمت جلالة الملك وتردد ثم سأله : ولم يحرمونه ؟

قال مراد باشا : لأنهم يتركونه يأكل من مال غيرهم ولا يطعمونه من عندهم ، فحرمه أولئك الفقهاء كما يحرمون مال « الغير » المأخوذ بغير علم من أصحابه .

وكنا نحسب أن هذا التشدد مما يرتاح إليه فقهاء نجد لأن الشيخ محمد بن عبد الوهاب منسوب إلى التشدد فيما يترخص فيه عامة الفقهاء .

ولكن جلالة الملك ظل على تردده والتفت إلى أخيه صاحب السمو عبد الله بن عبد الرحمن كمن يستفسر رأيه فى هذا التحريم .

فقال سمو الأمير : لاحرج فى أكله وما أرى وجهاً لتحريمه ولا قولا يعتد به فى ذلك ، وإنما حكمه حكم العصافير التى تأوى إلى أشجار الناس وتأكل من حيث أصابت الطعام .

فعرفنا شيئاً جديداً من مذاهب أهل نجد فى التحريم والتحليل ، فهم لا يأخذون بكل تشديد ولا يعزفون عن كل ترخيص ، وإن كانت لهم أقوال يخالفون بها جمهرة المتشددين والمترخصين .

وأطرف من هذا أن رئيساً من رؤساء الحكومة السعودية سأل الباشا : أهم يحرمون من الحمام الـ Pigeon أو الـ turtle Dove ؟ لأن الأول يأوى إلى البيوت والثانى قلما يأوى إليها وإن عرفت الأمم القديمة استئناسه فى بعض البلدان .

فكان هذا السؤال مما لم يخطر على البال ، قبل الاستدلال على الحرام والحلال .

عباس محمود العقاد

فى إرشاد الأريب

إلى معرفة الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبى

— ٢٧ —

ج ١ ص ٢٦٨ : ومن شعر نفطويه :

الجد أنفع من عقل وتأديب إن الزمان ليأتى بالأعاجيب
كم من أديب يزال الدهر يقصده بالنائبات ذوات الكره والحوب
وامرئ غير ذى دين ولا أدب معمر بين تأهيل وترحيب
ما الرزق من حيلة يحتالها فطن لكنه من عطاء غير محسوب

وجاء فى الشرح : (كم من أديب يزال الخ) لايزال حذفت لا كما فى كلام العرب أو هى يظل حرفت يزال والأول أوفق لوروده كثيراً . (وامرئ غير ذى دين الخ) . لا يستقيم الوزن إلا إذا جعلت همزة امرئ همزة قطع .

قلت : (كم من أديب يظل الدهر يقصده) يظل هى الرواية (وجاهل غير ذى دين ولا أدب) و (لا) لا تحذف قياساً إلا بعد قسم ، وقد شذ الحذف — كما قال ابن عقيل — دون القسم كقول الشاعر :

وأبرح ما أدام الله قومى بحمد الله منتطقا مجيدا[1]

أى صاحب نطاق (منطقة) وجواد .

وحذف هذا النافى بعد القسم كثير بل أكثر من الكثير ، وقد بينت المصنفات فى علم العربية (أعنى النحو[2]) وفى أسرار العربية[3] ، وفى فقه اللغة وسنن العرب فى كلامهم[4] ، وفى

---

(١) قلت : وشذ الحذف فى قول عمرو ذى الكلب من شعراء هذيل (ج ١ ص ٢٣٣ الطبعة الأوربية) :

فأبرح غازياً أهدى رعيلا أؤم سواد طود ذى نجال
ويبرح واحد واثنان صحبى ويوما فى أشاميم الرجال
وأبرح فى طوال الدهر حتى أقيم نساء بجيلة بالنمال

(النجال) ما يستنجل من الأرض يخرج منها .

(٢) سيبويه ١ ص ٢٩٣ ، شرح المفصل ٧ ص ١٠٩ .

(٣) أسرار العربية للأنبارى ١١٠ .

(٤) الصاحبي لابن فارس ص ١٧٥ ، فقه اللغة للثعالبي ٥٠٨ .

فنون البيان والأدب [1] ، وفى التفاسير [2] — هذه القاعدة خير تبيين ، بيد أن المتسمين بـ (البشرين) المتجمين من الضلالة والجهالة والوقاحة والسفالة أبوا إلا تخطئة علوم العربية كلها وأقوال العرب جميعاً فادبروا يقولون [3] — أبادهم الله — فى كتابهم (مقالة فى الاسلام وذيلها) ص ٤٥٩ : « ومنه (أى خطأ القرآن فى العربية) قوله فى سورة يوسف : تالله تفتؤ تذكر يوسف ، والوجه لا تفتؤ لأن فتئ وما جرى مجراها لا تستعمل إلا منفية » .

والوقح صخر الوجه لا يستحى من شىء .

لا يعمل البرد فى وجهه بل وجهه يعمل فى البرد

والقول القرآنى يعضد فى بلاغة الحذف وصحته قول معقل ابن خويلد (ديوان شعراء هذيل ج ١ ص ١٠١ الطبعة الأوربية) :

إذا أقسموا أقسمت أنفك منهم ولا منهما حتى أفك السلاسلا

وقول ساعدة بن جؤية (شعراء هذيل ج ٢ ص ١٥ الطبعة الأوربية) :

تالله يبقى على الأيام ذو حيد
أدفى صلود من الأوعال ذو خدم [4]

وقول المتلمس فى قصيدته وهى من (المنتقيات) فى (جمهرة أشعار العرب) :

آليت حب العراق الدهر أطعمه
والحب يأكله فى القرية السوس [5]

وقول امرىء القيس فى قصيدة مشهورة رويت فى ديوانه وفى كتب كثيرة :

فقلت يمين الله أبرح قاعداً
ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى [1]

وقول النابغة فى قصيدة فى ديوانه وفى كتب كثيرة :

فقال : تعالى نجعل الله بيننا على مالنا أو تنجزى لى آخره
فقالت : يمين الله أفعل إننى رأيتك مشؤوما يمينك فاجره

وقول ليلى الأخيلية فى قصيدة فى رثاء توبة (الأغانى ١١ ص ٣٢٠) :

فتالله تبنى بيتها أم عاصم على مثله أخرى الليالى النوابر
فأقسمت أبكى بعد توبة هالكا وأحفل من نالت صروف القادر

وقول امرأة سالم بن قحفان رواه الفصل وشرحه (ج ٧ ص ١٠٩) :

حلفت يميناً يا ابن قحفان بالذى
تكفل بالأرزاق فى السهل والجبل
تزال حبال مبرمات أعدها لها ما مشى يوماً على خفه جمل

وقول الأعشى (روى فى تهذيب إصلاح المنطق ص ٢٢٤ ، والاصلاح لابن السكيت ، والتهذيب للتبريزى) :

وإنى ورب الساجدين عشية
وما صك ناقوس النصارى أبيلها [2]
أصالحكم حتى تبوءوا بمثلها كصرخة حبلى أسلمتها قبيلها [3]

وقول أبى حنبل الطائى (رواه الميدانى فى مجمع الأمثال فى شرح : أوفى من أبى حنبل ج ٢ ص ٢٢٣) :

لقد آليت أغدر فى جداع وإن منيت أمات الرباع [4]

إن القرآن الكريم ليعضد هذه الأقوال المتقدمة وأقوالا غيرها لا تحصى روى طائفة منها سيبويه (ج ١ ص ٤٥٤) والفائق (ج ١ ص ٤٨) وأمالى الشجرى (ج ١ ص ٣٣٢)

---

(١) المثل السائر ص ٢٠٧ أمالى الشجرى ١ ص ٣٣٢ .

(٢) إعراب القرآن للعكبرى ٢ ص ٢٢ ، الطبرى ١٣ ص ٢٥ الكشاف ٢ ص ١٢٢ ، الرازى (٥) ص ١٥٨ .

(٣) فى الكشاف فى تفسير : ثم أدبر يسعى : أريد ثم أقبل يسعى كما تقول أقبل فلان يفعل كذا بمعنى أنشأ يفعل فوضع أدبر موضع أقبل لئلا يوصف بالاقبال .

(٤) الحيد فى القرن أى فى قرنه ، الأدفى الذى تحنى قرناه إلى ظهره الصلود الذى إذا نزع صلد فى الجبل أى صعد فيه ، ذو خدم أى أعصم (شرح ديوان شعراء هذيل) الأعصم الذى فى ذراعيه أو إحداهما بياض وسائره أسود أو أحمر ، والصلود المنفرد ، والحيد العقدة فى قرن الوعل .

(٥) من أبيات الكتاب . قال الشنتمرى : أراد على حب العراق فحذف الجار ونصب ، يخاطب عمرو بن هند وكان قد أقسم أن لا يطعم المتلمس حب العراق لما خافه على نفسه وصار إلى الشام ، فقال له المتلمس مستهزئاً آليت على حب العراق لا أطعمه وقد أمكننى منه بالشام مايغنى عما عندك ، وأشار إلى كثرة ما هنالك منه بما ذكر من أكل السوس له ، وأراد بالقرية الشام وبالحب البر (ج ١ ص ١٨) .

(١) يمين الله : منصوب بمعنى حلفت بيمين الله ثم أسقط الحرف فتعدى الفعل . ويروى بالرفع على الابتداء وخبره محذوف (التبريزى) .

(٢) الأبيل صاحب الناقوس ، والابيل رئيس النصارى ، والراهب (اللسان) .

(٣) قبلت القابلة الولد قبالا أخذته من الوالدة وهى قابلة المرأة وقبولها وقبيلها (اللسان) يقول : لا أصالحكم حتى تعترفوا بقتل الحرب التى أوقدتموها وتصرخون من شدتها كصراخ المرأة الحامل التى ضربها المخاض فهى تصيح لما يؤلمها من ذلك ، وقوله أسلمتها قبيلها يريد أن القابلة يئست منها ، إصلاح المنطق) .

(٤) الرباع جمع الربع — كصرد — وهو ما نتج فى أول النتاج ، وهو أحد النتاج وخص أمات الرباع لأنها أصبر الابل (الأنبارى شارح المفضليات) .

والمثل السائر (الطبعة الجديدة ج ٢ ص ١١١) والطبرى فى تفسيره (ج ١٣ ص ٢٥) .

وكتاب (المضللين) المعزو إلى الشيخ اليازجى قد شرحت حاله فى مقالاتى[1] فى الرسالة الغراء ، وبرأت الشيخ اليازجى بالحجة الشهباء من ذلك الهذر والسفه والجهل والهراء ، وأثبت أن المضللين مزورون ومفترون ، وأظهرت من أغلاط كتابهم فى العربية نحواً من مئة غلطة ...

* * *

ج ٢ ص ١٨ : أبو إسحاق المتوكلى (إبراهيم بن ممشاذ) كتب للمتوكل ، ثم صار من ندمائه فسمى المتوكلى ، ولم يكن بالعراق فى أيامه أبلغ منه ، وله رسالة طويلة فى تقريظ المتوكل والفتح بن خاقان يتداولها كتب العراق إلى الآن ، وتسخط صحبة أولاد المتوكل فتركهم ولحق بيعقوب بن الليث . كتب من عند يعقوب إلى المعتمد :

أنا ابن الأكارم من نسل جم   وحائز إرث ملوك العجم
ومحيى الذى باد من عزهم   وعفّى عليه طوال القدم
وطالب أوتارهم جهرة   فمن نام عن حقهم لم أنم
يهم الأنام بلذاتهم   ونفسى تهيم بسوق الهمم
إلى كل أمر رفيع العماد (م)   طويل النجاد منيف العلم
وإنى لآمل من ذى العلا   بلوغ مرادى بخير النسم
معى علم الكائنات الذى   به أرتجى أن أسود الأمم
فقل لبنى هاشم أجمعين (م)   هلموا إلى الخلع قبل الندم
ملكناكم عنوة بالرما   ح طعناً وضرباً بسيف خذم
وأولاكم الملك آباؤنا   فما إن وفيتم بشكر النعم
فعودوا إلى أرضكم بالحجاز (م)   لأكل الضباب ورعى الغنم
فإنى سأعلو سرير الملوك (م)   بحد الحسام وحرف القلم

قلت : رواية الراغب فى (محاضراته[2]) : (أنا ابن الأكارم من آل جم) .

(وعفّى عليه طوال القدم) فى الصحاح : الطوال بالفتح من قولك لا أكلمه طوال الدهر وطول الدهر بمعنى . وفى القاموس : الطوال كسحاب : مدى الدهر ، وضبط فى المخصص ج ٧ ص ٧٣ وفى اللسان بالفتح . وجاء فى التاج : « وذكره ابن مالك فى المثلثات » ولا أدرى من أين جاء ابن مالك بهذا التثليث .

(لنا علم الكابيان) كما روى الراغب ، وأغلب الظن أنه مثل الدرفس فى بيت البحترى :

والمنايا مواثل وأنو شروان (م)   يزجى الصفوف تحت الدرفس

(وأكل الضباب ورعى الغنم) رواية الراغب[1] .

(بحد الحسام ورأس القلم) رواية الراغب .

والميمات فى الأبيات الأربعة يحذفن ، فليست الكلمات فيها فى الصدر بمتصلات بالأعجاز ، والشعر هو من بحر المتقارب ، والقبض فى هذا البحر كثير ، وقال بعضهم : القبض فى عروض هذا البحر أحسن من التمام ، وعزوا إلى امرىء القيس هذا البيت الذى لم يقله :

أفاد فجاد ، وساد فزاد   وقاد فذاد ، وعاد فأفضل

وفى هذا البحر تجتمع العروض الصحيحة والمحذوفة والمقبوضة .

يقول الإمام ابن قتيبة فى (كتاب العرب أو الرد على الشعوبية[2]) : لم أر فى هذه الشعوبية أرسخ عداوة ولا أشد نصباً للعرب من السفلة والحشوة وأوباش النبط وأبناء أكرة القرى ، فأما أشراف العجم وذوو الأخطار منهم فيعرفون مالهم وما عليهم ...

وإنما لهجت السفلة منهم بذم العرب لأن منهم قوماً تحلوا بحلية الأدب فجالسوا الأشراف ، وقوما اتسموا بميسم الكتابة فقربوا من السلطان فدخلتهم الأنفة لآدابهم والغضاضة لأقدارهم من لؤم مغارسهم وخبث عناصرهم ، فمنهم من ألحق نفسه بأشراف العجم ، واعتزى إلى ملوكهم وأساورتهم ودخل فى باب فسيح لا حجاب عليه ونسب واسع لا مدافع عنه . ومنهم من أقام على خساسة ينافح عن لؤمه ، ويدعى الشرف للعجم كلها ليكون من ذوى الشرف ، ويظهر بغض العرب ؛ يتنقصها ، ويستفرغ مجهوده فى مشاتمها وإظهار مثالبها ، وتحريف الكلم فى مناقبها ، وبلسانها نطق ، وبهممها أنف ، وبآدابها تسلح عليها .

---

(١) المقالات ذوات العنوان : (كتاب المبشرين الطاعن فى عربية القرآن أسلم مصري أم مبشر برستنق) الرسالة ١٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٤ ، ٢٧٧ ، ٢٨٠ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ .

(٢) ورواية الباحث الفاضل الأستاذ خليفة التونسى فى الرسالة الغراء ٦٤٥

(١) ورواية الأستاذ التونسى .

(٢) نشره العلامة الأستاذ الشيخ جمال الدين القاسمى (رحمه الله) فى مجلة المقتبس الغراء لصاحبها العلامة الأستاذ السيد محمد كرد على .

واحة كفرة

كيف احتلها الطليان وفتكوا بأهلها سنة ١٩٣٠

« كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة »
« سورة التوبة »

للأستاذ أحمد رمزي

إني من القوم الذين يؤمنون بأن مصر بلادنا هي قلب العروبة . هذا ما ناديت به ، وكنت أول من أذاعه من رادبو الشرق أيام الانتداب الفرنسي ، وأعتقد أن موقع مصر بين بلاد العرب في الجزيرة وبلاد العرب في شمال أفريقية وجنوبي وادي النيل ، يجعل لها هذه الميزة ، ويحتم عليها أن تحمل الأمانة التي عجز عنها غيرها ، وأعتقد أن تاريخ مصر في عهدها العربي قد أتى هذه الرسالة على المصريين ، ولذلك اتجهت أنظارهم وآمالهم نحو هذه البلاد الشقيقة المحيطة بهم ، وكلما مرت الأيام ازدادت النفوس اطمئنانا لمصر ، وتقاربت القلوب وتماسكت واتجهت نحو حياة جديدة . ونحن الذين نشأنا على هذه العقيدة قد أشربت نفوسنا محبة هذه البقاع وتاريخها .

ومن بين دروس الماضي المملوءة بالذكريات ، لا أجد درساً أشد وقعاً على نفسي، وإيلاما لها من درس احتلال الكفرة وما حل بها ، يوم خرج أهلوها من أوطانهم وهم يعدّون بالمئات خشية بطش الطليان وفتكهم ، فأخذتهم الصحراء وماتوا في سبيل الله .

وواحة كفرة معقل من معاقل الإسلام والعروبة ، في هذه الصحراء الكبرى الممتدة من وادي النيل إلى مياه المحيط ، ذلك الجزء من العالم ، الذي كان بوتقة تختمر فيها الدعوات والحركات الشعبية ، التي إذا قامت اكتسحت في وجهها كل شيء ، فلا تصمد أمامها الحصون ولا الأسوار، ولا تردها الممالك ولا الجيوش، ولا تقف البحار بينها وبين الفتوح ، ففيها قامت دعوة أبي عبدالله الشيعي ، مؤسس قواعد الملك للخلافة الفاطمية ، فكان من أمرهم ما كان ، ملك يطاول ملك الشمس ، لا تزال آثارهم باقية ظاهرة واضحة في هذه القاهرة المعزية ، التي احتضنت العروبة والإسلام لألف عام ، والتي أصبحت اليوم موطن العروبة ومقر الجامعة العربية

وفي هذه البطائح موطن الأسود ، ظهرت دعوة المرابطين ، فانتشرت وامتدت . ومن منا يجهل يوسف بن تاشفين وجهاده وحروبه بالأندلس ؟ والله لو تأخر مقدمه ، لاكتسح الفرنجة أرضها قبل يوم الميعاد بأربعة قرون . فبالله ما رأيك في سيف يؤخر حكم القدر أربعمائة عام ؟

وعلى هذه الرمال ظهرت قوة الموحدين ، وهم أناس شيّدوا ملكا وقادوا الجحافل ولهم أيام ومعارك وفتوح .

وإذا نزلت جنوباً عن الكفرة ، ذكرت حركة المهدي ، وهي دعوة إصلاح وإخلاص تحركت بها النفوس وآمنت ، وسارت في طريقها ، ولم يضعف من شأنها غير وفاة صاحبها قبل أن تثبت جذورها .

وأخيراً دعوة السنوسية وانتشارها ، وافتتاح الزوايا والأربطة والعمل في سبيل الله ، والدفاع عن أراضي برقة وليبيا .

إن أرض العروبة في أفريقيا ، سواء في شمالها أو صحاريها أو جنوبي مصر ، موطن للحركات القوية ، التي تنبثق من إيمان أهلها ، فتخرج إلى الدنيا ، لتهز الدنيا ، وتؤسس الملك وتقود الشعوب وتحرك الهمم . هذا شأن هذه البقاع منذ عرفتها العروبة وعرفها الإسلام .

فأهل مراكش في جهاد دائم منذ الأعصر الأولى ، يرابطون في منازلهم ويقاتلون في سبيل الله ، وما من ملحمة في تاريخ العرب بالأندلس إلا وسمعت أن لأهل المغرب لهم فيها المواقف الباسلة والأيادي التي لا تنسى .

وقس على ذلك سائر سكان هذه البلاد ، كان هذا شأنهم حتى دهم الاستعمار بلادهم ، فهل هبطت عزائمهم ؟

إن تاريخ المغرب في قرن من الزمن ، هو صفحة مجد لم تكتب ليومنا هذا ، ولكنها ستكتب يوماً وسيعلم الناس من أمرهم الشيء الكثير ...

وأعود إلى الكفرة ، بقيت هذه البقعة آخر معقل للاسلام والعروبة ، حتى دهمها الطليان في يوم من آخر أيام سنة ١٩٣٠ فافتتحوها واقتصوا من أهلها وشردوهم ، وفي طريقهم إلى واحات مصر ، حلت بهم أكبر نكبة في القرن العشرين .

والآن وقد طوى حكم الطليان عنها هل عادت لأهلها ؟ كلا لا تزال تحتلها جنود فرنسا ، بل هناك أكثر من ذلك ، فقد قرأنا أنها تطالب باقتطاع إقليم فزّان وأجزاء من جنوبي طرابلس وبرقة لضمه إلى مستعمراتها . فهل سمع بذلك ؟ وما هو موقف جامعة الأمم العربية وشعوبها ؟

لم يقصر أهل الكفرة عن الدفاع عنها بأموالهم وأرواحهم بل استشهد الكثير منهم فى سبيلها ... وإليكم صفحة من آخر أيام عاشتها الكفرة وكيف استولى الطليان عليها ...

يحدثنا الطليان فى كتبهم ومراجعهم بأن جراتزيانى قائدهم يعرف تماماً أن البادية بأخطارها وفيافيها كانت دائماً معقلا للمجاهدين ، فكانت حكومات المستعمرين تهاب الرمال ، ولذا اتخذت فرنسا وهى العتيقة فى أساليبها وتقاليدها الاستعمارية واتصالها بالشعوب المظلومة ، سياسة خاصة بالصحراء الكبرى ، إذ أخذت تتقرب لزعماء الطوارق وتتخذ منهم أنصاراً لها .

ولكن إيطاليا الفاشستية أرادت أن تضرب للناس مثلا ، وأن تقوم بأكبر العمليات الحربية فى صحراء ليبيا ، وأن تحرز لأسلحتها نصراً عجز الغير عن إحرازه ، فتراه يتحدث مفتخراً بأن فرنسا لم تبدأ حملاتها ضد الصحراء قبل سنة ١٩٠٠ ، حينما احتلت واحة عين صلاح ، على حافة الصحراء الكبرى فى الجنوب من أراضى الجزائر ، أى بعد مضى سبعين عاماً من دخولهم القطر الجزائرى الشهيد ، واستخلص من تجارب الفرنسيين ، أنهم اقتنعوا باستحالة إتمام الفتح ، إذا بقوا معتمدين على كواكب الخيالة من السباهين الوطنيين ، ولذا فكروا منذ سنة ١٩٠٠ فى إنشاء قوة من الرجال سموها : قوات البادية وألقى عليها عبء القتال والفتح — والفضل فى إنشائها وتدريبها وتكوينها يعود إلى ضابط فرنسى اسمه الماجور لابيرن .

أما الطليان فقد أخذوا بكل تجارب ودروس من تقدمهم فى فن الاستعمار ، ولذلك اتجهوا إلى إنشاء قوة ممتازة من الرجال ، فى مستعمرة طرابلس ، أطلقوا عليها أيضاً إسم قوة البادية ، وهى التى أشرف على تدريبها وقيادتها المرحوم الدوقا داوستا الذى أسر فى الحرب الحبشية ومات باستراليا . وهذه القوة الجديدة باشرت عمليات الفتح فى مستعمرتى ليبيا وبرقة ، وبعد أن كانت مشكّلة من فصيلة واحدة من الهجانة فى سنة ١٩٢٢ ، إذا بها مكونة من عدة وحدات وإذا بجنودها يتدربون على استعمال الأسلحة الخفيفة السريعة الطلقات . وعلى هذه الوحدات مدعمة بسيارات النقل والطيران ألقى واجب افتتاح واحة الكفرة ، والقضاء على آخر معقل من معاقل الإسلام والعروبة فى الصحراء .

وكان الزحف على الكفرة من إجدابية إلى جالو ، وهى تبعد (٢٤٠ كيلو مترا) ومنها إلى بئر زيجن (٤٠٠ كيلو متر) ومنه إلى الكفرة (١٤٠ كيلو مترا) وتحركت الحملة فى ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٣٠ من إجدابية متجهة إلى الجنوب فقطعتها السيارات فى أربعة أيام للوصول إلى جالو ، وكان جراتزيانى قد زار إجدابية فى ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٣٠ متفقدا المعسكرات ، فوجد أن الحملة تجهز فى أقرب وقت ، وقد ذكر فى تقاريره ، أنه وازن الأمور والمصاعب وقدّر لكل شىء ما يلزمه ، وذكر أن الحملة بأكلها دربت تدريبا شاقاً بحيث يكون بوسعها أن تنزل أثقالها فى ٢٠ دقيقة وترفعها للسير بها بعد مضى نصف ساعة من صدور الأمر إليها بالسفر .

وذكر أنه فى ليلة ٢٨ و ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٣٠ هبت عليها ريح صرصر عاتية محملة بالرمال فأخفت كل شىء أمامها ، حتى فكر الجنرال الإيطالى فى إصدار أمره بالعودة ، حينما امتنعت الجمال والدواب عن العليق والماء ، وأعقب ذلك زمهرير قارص . ولكن جاء يوم ٣٠ ديسمبر هادئاً صحواً ، فانتهز الفرصة وأصدر أمره الحاسم بالسير إلى الجنوب حتى لا تفلت الفريسة من يده .

وكان المرابطون بتلك الجهات حفنة من الرجال ، هم بقايا الأمم والممالك التى سادت الصحراء ، ليس أمامهم إلا المقاومة فى بئر زيجن ، أو على الطريق ، أو الوقوف للدفاع عن الكفرة ، وكانوا يعتقدون أن الطليان سيأتون من الغرب عن طريق فزان ، أما جراتزيانى فاستعان بسرب من الطائرات للاستكشاف ، ثم أصدر أمره إلى فصيلتين من قوات البادية أن تتقدم كل واحدة منهما فى طريق يفصلها عن الأخرى ثمانون كيلو متراً ، فالتقت إحداها بالمجاهدين واشتبكوا معها فى قتال دام ثلاث ساعات ، واقتحم الطليان الواحة على أجساد الشهداء .

ويهلل القائد بأن قواته دخلت فى الموعد الذى سبق له أن حدّده على خريطته ...

وانتهت بذلك آخر مأساة فى تاريخ الإستعمار الإيطالى بالصحراء

أحمد رمزى

القنصل العام السابق لمصر بسوريا ولبنان

بعد إباحة الهجرة الصهيونية :

اللغـــة الوحيدة

التي يفهمها الإنجليز

للأستاذ سيد قطب

كتبت في « الرسالة » بتاريخ ٢٦ نوفمبر الماضي كلمة تحت عنوان : « أيها العرب . استيقظوا واحذروا » . واليوم وبعد أن قررت الحكومة الإنجليزية إباحة الهجرة الصهيونية إلى فلسطين ، على رغم أنف العرب ، وأنف الكتاب الأبيض الإنجليزي أيضاً . اليوم يهمني أن أعيد نشر الفقرات الأولى من هذا المقال ، قبل التعليق على هذا القرار الأخير :

« إن قضية العرب في فلسطين تتأخر ولا تقدم !

« ويسوءني أن أكون نذير سوء ؛ ولكن لأن نواجه الحقائق الواقعة ، خير من أن نستنيم للأحلام ...

« حينما صدر الكتاب الأبيض الإنجليزي ، أعلن كل عربي مخلص أنه لا يرضى عن هذا الكتاب ، وأنه صدمة لآمال العرب بما تضمنه من استمرار الهجرة الصهيونية فترة أخرى — وإن تكن موقوتة — تصبح الهجرة بعدها مرهونة بمشيئة العرب ، إن شاءوا أمضوها ، وإن شاءوا لم يسمحوا من بعد بها .

« واليوم يتمسك العرب بسياسة الكتاب الأبيض ، ويدعون انجلترا للمحافظة عليها .

« إذن قضية العرب في فلسطين تتأخر ولا تتقدم !

« تتأخر ، فيصبح الكتاب الأبيض الذي كان بالأمس موضع شكوى العرب ، هو موضع رجائهم ، وينقلب الحد الأدنى — أو ما هو دونه — حداً أعلى لآمال العرب ، أو الناطقين باسمهم في هذه الأيام !

« ألا إنها المحنة التي يجب أن تتفتح عليها الأبصار !

« فلننظر فيم كان هذا الانقلاب ؟

« صدر الكتاب الأبيض بالأمس ترضية للعرب الثائرين الساخطين . فرفضوه واستصغروه . فلما سرى البرد إلى دمائهم الفائرة ، ودب الخدر إلى أعصابهم الثائرة ، رضوا عن الكتاب الأبيض ، ووقفوا ينتظرون ...

« والغى الكتاب الأبيض اليوم ترضية للصهيونيين الثائرين المتدين ، وهم يرفضون إلغاءه ، ويستصغرون اقتراحات « بيفن » الأخيرة ، لأن العرب لا يزالون في خدر لذيذ يستنيمون إليه ... ذلك أنهم يثقون بالضمير البريطاني ! ! !

« ومن هنا نستطيع أن نعرف : متى يسترضينا الإنجليز ، ومتى يسترضون الصهيونيين ؟ ! » . ثم قلت في نهاية ذلك المقال :

« والآن ... ما هو طريقنا المأمون ؟

« طريقنا ألا نثق بضمير أحد ، فما لأحد في العالم الغربي ضمير ! لقد برهنت هذه الحضارة الغربية على إفلاس في الضمير لا عهد للعالم به في جميع الحضارات السابقة

« وقبل أن نثق بالضمير الأوربي أو الأمريكي ، يجب أن نتذكر لفرنسا حوادث سوريا ولبنان — وهي قريبة لم تغب عن العيان — ويجب أن نذكر لانجلترا يوم ٤ فبراير الشنيع ، ثم موقفها في أندونسيا — وهو حاضر الآن — ويجب أن نذكر لأمريكا نداء « ترومان » ونصرته للصهيونيين !

« وطريقنا ألا نستنيم لمخدرات التأجيل ، إلا إذا وقفت الهجرة وقفاً تاماً حتى يتم التحقيق . فلقد رأينا أن الزمن ليس في صالحنا . وإذا شاء أحد أن يستنيم ، فليتذكر متى صدر الكتاب الأبيض بوقف الهجرة الصهيونية في موعد محدد ، ولماذا صدر هذا الكتاب ؟ ثم ليتذكر متى ألغى الكتاب الأبيض وأبيحت الهجرة من جديد ، ولماذا كان هذا الانقلاب ؟

« صدر الكتاب الأبيض ترضية للعرب الساخطين الثائرين ، وصدر تصريح « بيفن » الأخير ترضية لليهود المتدين الإرهابيين »

قلت ذلك من نحو ثلاثة أشهر ، فقال لي قوم ممن يسمونهم « العقلاء » : لا تنس أن إباحة الهجرة الصهيونية مرهونة بمشيئة العرب ، وأن مستر « بيفن » قدم قراره الأخير في صورة « اقتراح » ، فإذا رفض العرب ، فلن تكون هجرة للصهيونيين!

ثم ها هو ذا مستر « بيفن » يقرر تنفيذ اقتراحه ، بعد أن رفضه العرب وأبلغوه قرار الرفض مجتمعين !

ذلك أن قرار الرفض من جانب العرب لم يبلغ للمستر « بيفن » باللغة الوحيدة التي يفهمها الإنجليز ! فهم معذورون حين لا يفهمون!

ومصيبتنا الكبرى — سواء في قضية فلسطين أو في قضايا البلاد العربية جميعاً — أننا لا نخاطب الإنجليز باللغة الوحيدة التي يفهمونها كل حين !

بمناسبة «المولد»:

حقائق مؤلمـــة

للأستاذ علي الطنطاوي

«الكتاب أطباء الأمة. فإذا جامل الطبيب مريضه فكتم عنه داءه، لم يبرأ منه أبداً». «علي»

هذا يوم «المولد»، وإنه لمحطة في طريق الزمان، فلنقف عليه كما يقف المسافر في المحطة، ليلقي ببصره حوله، فينظر إلى أين يسير، وكم قطع من طريقه إلى غايته، وهل يمشي إليها على الصراط السويّ، أم قد ضلّ عنها وجانفها، وهل يساير القافلة أم شرد عنها وفارقها؟ ولنحاسب فيه أنفسنا كما يحاسب التاجر نفسه، فيرى ما له وما عليه...

أما أنا، فقد وقفت ونظرت، فأبتُ وقد فاضت النفس حسرة، وامتلأت ألماً، وأيقنت أن الذي علينا، أكثر من الذي لنا، وأننا قد «خسرنا»!

ولم يكن التشاؤم من شأني، ولا اليأس مذهبي، ولكن ما نحن فيه يُؤْيِس الآمل، ويكْرُب المتفائل، وأين لعمري باب الأمل حتى أَلِجه، وأية حال من أحوالنا تبشر بالخير، وتدعو إلى السرور: أحالنا في بيوتنا، أم في مدارسنا، أم في أسواقنا، أم في دواوين حكومتنا؟ وأي طبقة من طبقاتنا تتبع هدْي نبينا: أعلماؤنا أم قادتنا، أم أدباؤنا، أم عامتنا؟ وأي بلد من بلداننا، كان البلد الإسلامي الخالص: أحجازنا، أم شامنا، أم مصرنا، أم عراقنا؟

***

أما البيوت، وهي الحجارة في صرح الوطن، لا يصلح إن فسدت، ولا ينهض إن تهافتت، فلقد كان العهد بها مؤسسة على التقوى، قائمة على الخلق النبيل، والود المبذول، وكان الرجل

ويبلغ بنا البله والغفلة أن نخاطبهم باللغة الدبلوماسية — وهم لا يفهمون هذه اللغة مع الأسف من الشعوب الصغيرة، بل هم لا يفهمونها من الشعوب الكبيرة في بعض الأحايين!

والضمير السياسي البريطاني؟ تلك الخرافة التي يتعلق بها ساستنا حينما تضعف نفوسهم عن اختيار الطريق الوحيد المؤدي إلى حقوقنا الوطنية، وتعجز ألسنتهم عن اللغة الوحيدة التي يفهمها الانجليز.

هذه الخرافة التي لم ننكب مرة واحدة إلا عن طريق التعلق بها، ولم ننجح مرة واحدة إلا عن طريق اليأس منها. ومع كل التجارب الماضية يوجد بيننا من لا يزال يثق في هذا الضمير

ها هي ذي الهجرة الصهيونية تباح أيها الواثقون بالضمير السياسي البريطاني. فما ذا أنتم قائلون؟ بل ما ذا أنتم فاعلون؟

مذكرات دبلوماسية! وبيانات دبلوماسية! وانتظار للردود على هذه البيانات والمذكرات، تأتيكم أولا تأتيكم بعد حين!

والهجرة تستمر، والصهيونيون يدخلون!

أيتها الأمة العربية:

أفيك رصيد مذخور، أم أنت من الهالكين؟ فأما إن تكن الأولى أيتها الأمة فخاطبي القوم باللغة الوحيدة التي يفهمون، وأما إن تكن الثانية، فإن الإنجليز معذورون، والصهيونيين محقون!

أيتها الأمة العربية: لا تعتمدي على رجال السياسة، فقد تكون لهم قيود وحدود. ولكن اعتمدي على نفسك، وادفعي إلى الأمام ليتخطوا هذه السدود والقيود!

أيتها الأمة العربية:

«احذري رجال السياسة من أبنائك، لا لأنهم قد يخونونك أو يخدعونك؛ ولكن لأنهم هم قد يخانون ويُخدعون. ولأن كراسي الحكم والمناصب، قد تكون في بعض الأحيان وثيرة إلى حد تستنيم له الأعصاب الثائرة، وتخمد فيه الدماء الفائرة!

أيتها الأمة العربية:

خذي الأمر في يديك من جديد. فإني أرى الموقف يستدعي جهود الشعوب نفسها، لا جهود زعماء الشعوب!

وما يخدعك أيتها الأمة — في كل قضاياك الوطنية لا في قضية فلسطين وحدها — إلا المخدوع، يقصيك عن الأمر ويستنيم للوعود!»

تلك صيحتي لك بالأمس، وإنها لصيحتي لك اليوم. فخاطبي القوم باللغة الوحيدة التي يفهمونها، وإلا فسيذهب صوتك الدبلوماسي الناعم صرخة في واد. والأمر إليك، فانظري ما ذا تأمرين!

سيد قطب

فيها سيداً يطيعه أهلها ويطيع هو ربه ، وكان لعمله وبيته ، لا يعرف غيرها ، ولايهمه سواهما ، وكان الولد براً بأبيه ، والزوجة موافقة لزوجها ، همها دارها ، ومطمحها إسعاد زوجها وولدها ، فتغيرت الحال ، فصارت المرأة قوامة على رجلها ، والولد متكبراً على أبيه ، والرجل داره قهوته أو ملهاه أو ناديه ، والمرأة بيتها الشارع ودينها زينتها ، تتخذها لتتجمل بها للرجال الأجانب فى الترام والطريق ، لا لزوجها فى المنزل ، وآثرت على دارها زياراتها وسينماها ، وربما خالف الزوج إلى غير أهله ، وخالفت هى غير زوجها ، ونشأ الولد على المجون ، وشبت البنت على الاستهتار ، هذا وميزان النفقات فى البيت مختـل ، وحبل الود مصروم ، والتعاون على الخير مفقود ، وظل الدين غير ممدود ، وما بقى من البيوت صالحاً ، فإن الفساد يسعى إليه ، وهو يسعى إلى الفساد !

أما المدارس ، فلقد كنا نعرفها مشارق أنوار العلم ، ومنابع الهدى ، ونعرف المعلمين فيها مربين مهذبين ، ورثة الرسل وخلفاء الأنبياء ، ونعرف التلاميذ وهم طلاب علم وقصّاد خلق ، دنياهم مدرستهم ، وعملهم درسهم ، وأمتهم معلموهم ، فكانت المدارس تخرج علماء ومهذبين ، أصحاب خلق متين ودين ، تعتز بهم بلادهم ، وتسمو أوطانهم ، فصار همّ التلاميذ حزب سياسي ينتسبون إليه ويصرخون فى مظاهراته ، ويضعون أكتافهم سلماً لزعمائه ، يرتقون عليه إلى مايشتهون من كراسى الحكم ، أونحلة ينتحلونها ، ويحملون فى صدورهم شارتها ، ويهرعون إلى ناديها ، ثم لايفهمون من حقها أو باطلها إلا هذه المظاهر التى طلبوها لها وحدها ، ثم يشتغلون عن الدرس بالخلاف عليها والكلام فيها ، من غير فقه لها ، أو وقوف على مبادئها ، أو فلم سينمائى يحرصون عليه أكثر من حرصهم على دروسهم وعبادتهم ، أو رواية فى مسرح ، أو صورة مكشوفة فى مجلة ، وصار المعلمون — أعنى أكثر المعلمين — أصحاب شهادات لا علوم ، ودعاة مذاهب سياسية أو اجتماعية ، لا دعاة إلى الله ولا إلى الخلق ، وصاروا قدوة الطلاب فى قصد السينمات والملاهى ، لا قصد المساجد والمكتبات ، وصار منهم الشيوعى الذى يعلن شيوعيته ، والقوى الذى يظهر قوميته ، والجاحد الذى لايتوارى بجحوده ، والماجن الذى لايتستر بمجونه ، إى والله العظيم ، ووسـدت الأمور إلى غير أهلها ، فجعل غير العالمين معلمين ، والمحتاجون إلى التربية مربين ، وتكلم فى المسائل من ليس من أربابها ، وتصدر فى محرابها من لم يلج بابها ، وجىء بالشباب العزاب ليعلموا البنات ، فكنا كمن يدنى سلكتى[1] الكهرباء ، حتى تنقدح شرارتهما ، ويضع إلى جانبهما البارود ، ثم ينام الأحمق آمناً من الانفجار ، ما بقى والله إلا أن نجىء بالبنات ليعلمن الشباب ، وما دمنا نمشى على هذا الطريق ، فابقى شىء عجيب ، وكل آت قريب ! !

اللهم الطف بنا ، ولا تكلنا إلى أنفسنا ، ولا تسلط علينا سفهاءنا ، يا رب !

أما الأسواق ، فلقد كانت فيها التجارة فصارفيها الاحتكار ، وكان فيها قوم منا ، يجلبون لنا أرزاقنا ، فصار فيها أعداء لنا ، يسرقون فيخزنون أقواتنا ، ليجمعوا القروش من جيوبنا فيجعلوها ذهباً فى صناديقهم ، ولقد انتهت الحرب ، وحل السلام ، ولا يزال هؤلاء الفجار الأشرار يرفعون الأسعار ، ويكوون الفقراء بالنار ، لا يعرفون الإنصاف ولا الرحمة ولا الإنسانية ...

أما دواوين الحكومة ، فقد نسى من فيها أنهم أجراء الناس ، يأكلون الخبز من فضل أيديهم ، ويجلسون مجالسهم هذه لخدمة مصالحهم ، وحسبوا أنهم ملوك والناس لهم خول ، وسادة وهم لهم عبيد ، ثم لم يكف أكثرهم ما يأخذون من وقت من يرجع فى حاجته إليهم ، ومن كرامة نفسه حتى أخذوا الرشوة من جيبه ، وربما مدوا أعينهم إلى عرضه ... وهم بعد ذلك جيش مجيَّش ، نصفهم لا يحتاج إليه ، ولا ينتفع به ، قد جاءت به الوساطات والشفاعات ، فرفعته من غير كفاية على أهل الكفايات ، ومن اقتصر منهم على مرتبه ليعيش به ، عاش من قلة المرتب حياة هى كالموت ، ولم يكفه المرتب ثمن الخبز ، فكأن الحكومة تقول لصغار الموظفين : اذهبوا فاسرقوا لتعيشوا ، فإن ثمن خبزكم أعطيناه لكبار الموظفين ، لينفقوه على الترف والسرف والقرف[2]

ثم إن العلماء ، وهم عدة الإصلاح ، ولُسُن الحق ، ودعاة الله ، هربوا واختبأوا فى بيوتهم ، فمنهم من لا يرى النكر ولا يعرفه ، ومنهم من يراه ولا ينكره ، ومنهم من ينكره همساً ، ومنهم من يعلن ولا يعرف الطريق الموصل إلى رفع المنكرات ، ومنهم من ملأت قلبه الدنيا ، فهو يسعى إليها ، ويزاحم عليها ، وربما اصطادها بشبكة من لحية عريضة ، وقيدها بسبحة طويلة ، وأخفاها تحت عمامة ضخمة ، وذل من أجلها للحكام ، وخضع

(١) السلك جمع والناس يظنونه فرداً . والواحدة سلكة وهى الخيط .

(٢) القرف . الاسم من المقارفة

للأغنياء ، وفقد القلب الذى يقتحم الأهوال ، واللسان الذى يصدع بالحق ، فغدا يقول ولا يستمع لقوله ، وينكر ولا يلتفت لإنكاره ، وجلّهم لا قلم له يخاطب به الناس ، ويسوقهم به إلى الحق ، ولا لسان ، فكيف يكون داعياً من لا يكون خطيباً ولا كاتباً ؟

والقادة ما صاروا قادة بعبقرية اختصهم بها الله ، ولا بعلم اختصوا به أنفسهم ، وأحيوا فى تحصيله لياليهم ، ولا بعقل هو فوق العقول ، وذكاء لايدانيه ذكاء ، ولكنها هى حرفة احترفوها ومسلك سلكوه : زيد وعمرو ، أما زيد فجدّ واستقام ودرس حتى أكل المدرسة فصار معلما أو كاتباً ، أو موظفاً ... وأما عمرو ، فأهمل درسه ، وأضاع وقته ، والتوى مع الطرق الملتوية ، فالتحق بالأحزاب ، وعاشر الأغراب ، وولج حيث لا يحسن الولوج ، وخرج من حيث يستقبح الخروج ، ورفع ووضع ، وخرب وأصلح ، حتى عرفه الناس ، فكان نائباً ، ثم صار وزيراً ، ثم تمت آثار قدرة الله القادر على كل شىء ، فاستحال قائداً من القادة ... !

والأدباء وأهل الصحف ، همّ أكثرهم التزلف إلى القراء ، والوصول إلى رضاهم ، رأوا أقرب الطرق طريق الشهوة فسلكوه ، وركبوا فيه الصعب والذلول : من الصور العارية ، والقصص المثيرة ، وطريق الإغراب فى عرض الأخبار ، وتكبير الصغير ، وتعظيم الحقير ، وتشويه أوجه الحقائق ، فيقرأ الناشئ الشىء وضده ، فلا يؤمن من بعد بشىء ، وإن كان فى الكتاب من يدعو إلى إصلاح ، فى لغة صحيحة ، وأسلوب منقح ، لم يقرأه إلا الخاصة ، وإن كانت مجلة على هذه الصفة لم يُبع منها مع كل ألف من تلك عدد واحد !

ولعلى بالغت ، أو غلب علىّ التشاؤم ، فلم أر إلا ما ذكرت ووصفت ، ولكنى صدقت ولم أقل إلا حقاً ، ولعل الذى قلت أقل من الحق !

إن العالم اليوم واقف على مفرق الطرق ، حائر بينها أيّاً يسلك منها ، ونحن أشد أهل العالم حيرة وتردداً ، فنحن فى المكان الذى تلتقى فيه نحل الشرق والغرب ومذاهبهما كلها ، فيأخذ كل واحد ما تصل إليه يده ، ثم يصيح فى الدعوة إليه ، ثم يزاحم ليشق له طريقاً ... فنحن فى زحمة وضجة دونها ما يروون عن ضجة برج بابل ، والله وحده يعلم متى تنجلى ... ففى الدين سلفيون وصوفيون ، ودعاة إلى التمسك بالمذاهب وترك الاجتهاد ، وإلى الاجتهاد ونبذ التقليد ، وإلى الأخذ بالحديث وترك كتب الفقه وإلى الاقتصار عليها ، وفى البدع دعاة إلى القاديانية والبهائية والنصيرية والتيجانية ووحدة الوجود ، وفى غير الدين شيوعيون وقوميون سوريون ، وملحدون ومستهترون ، ثم الدعاة إلى السفور والاختلاط ، والمدافعون عن الحجاب ، وفى السياسة كتلويون وعصبويون ومعارضون ومؤيدون ، وعاملون للانكليز أو للفرنسيين أو للروس ، وقائلون بالجمهورية أو بالملكية ، أو بالاستقلال أو بسورية الكبرى أو بالوحدة العربية ، والمناقشات مستمرة لا تنقطع ، والخلافات قائمة ما تقعد ، قد انشقت البيوت ، وانصدعت الأسر ، وإنى لأعرف أخوين : شيوعياً أحمر ، وعضواً فى شباب محمد ، شقيقين فى دار واحدة ، وأبوهما شيخ طريقة... وأعرف شيوعياً وأبوه نقيب أشراف ، فالإخوان فى المنزل ، والرفاق فى المدرسة ، والزملاء فى الديوان ، يختلفون أبداً ويتقاتلون ... !

فمتى تنجلى هذه الغمرة ؟ الله وحده العالم !

هذا فى دمشق ، أما الحجاز ومصر والعراق ، فإنى أعرفها كلها وعشت فيها ، ولكن ليكتب عنها كتاب من أهل مصر والعراق والحجاز ، يفتح فى « الرسالة » باب من أبرك الأبواب ، وأكثرها فائدة ونفعاً ، إذ أن أول الدواء تصور الداء ... !

(دمشق) **علي الطنطاوي**

الكذب والنسيان

كما يراهما «أبو العلاء المعري»

للأستاذ كامل كيلاني

١ – آفة الأخبار

المعري أديب محقق، وراوية ثبت، ومؤرخ نافذ البصيرة، وناقد منصف، يستخدم كل ما وهبه الله من ميزات باهرة، وثقافة شاملة نادرة، في سبيل الوصول إلى الحقيقة، وتجليتها مما يكتنفها من الأستار والحجب، وإماطة اللثام عما يعترض الباحثين عنها من الشكوك والريب.

يقول الشاعر:

«هُمُ نقلوا عنى الذى لم أفُهْ به ... وما آفةُ الأخبار إلا رواتها»

٢ – آفة الرواة

وآفة الرواة – فيما يرى أبو العلاء – شيئان: الكذب والنسيان. فلا غرو إذا ضجر بهما، وعرض لهما في كثير من المناسبات، واحتفل لهما ما شاء له أدبه وخياله، وأتى في الحديث عنهما بالشائق المعجب.

٣ – قتل الفكرة

فهو إذا فزّعه من الموت أنه يبيد الجسم الذى لا يعنيه منه إلا أنه سياج الروح وهيكلها، فزّعه من الكذب أنه قتل للفكرة وإضاعة للحقيقة التى يبحث عنها جاهداً، وفزّعه من النسيان أنه قتل للعقل الذى يعتز به ولا يعدل به شيئاً. قال:

أصبحتُ فى بيت مدر لا أملكه، كبيت قريض أستدركه، إشتمل عليه النسيان فهو مهلكه.

٤ – تمنى الموت

على أنه قد يتمنى الموت أحياناً، لأنه يريح الإنسان من آلام الحياة، ويريح الجسم من أذيتها، ويغنى صاحبه عن حاجات الدنيا فيقول:

العيش أفقر منا كل ذات غنى ... والموت أغنى بحق كل محتاج

إذا حياة علينا للأذى فتحت ... باباً من الشر لاقاه بإرتاج

أو يقول:

على البلى سيفيد المرء فائدة ... فالمسك يزداد من طيب إذا سحقا

٥ – تسويغ الكذب والنسيان

وقد يوصى بالكذب إذا عرّض الصدقُ صاحبه للهلاك فيقول:

أصدق إلى أن تظن الصدق مهلكة ... وبعد ذلك فاقصد كاذباً وقم

فالمين جيفةُ مضطرٍ ألمّ بها ... والصدق كالماء يجنى خيفة الشبم

وقد يتمنى النسيان والذهول ليتمثل بذلك همومه وأحزانه فيقول:

تمنيت أن الخمر حلت لنشوة ... تجهلنى كيف اطمأنت بى الحال

فأذهل أنى بالعراق على شفا ... رزى الأمانى لا أنيس ولا مال

مقل من الأهلين يسر وأسرة ... كفى حزناً بينٌ مشِتٌ وإقلال

وهى لفتات ذهنية عارضة، لا يجهل القارئ مغزاها، وصور كلامية لعله أعرف منا بغايتها ومرماها.

٦ – تمجيد العقل

على أن الأدب العلائى قد حفل – شعراً ونثراً – بتمجيد العقل، وحب الصحيح والتفزع من الذهول والنسيان فهو يقول:

الفكر حبل متى يمسك على طرف ... منه، ينط بالثريا ذلك الطرف

والعقل كالبحر غيضت جوانبه ... شيئاً، ومنه بنو الأيام تغترف

ويقول:

وينفر عقلى مغضباً إن تركته ... سدى واتبعت الشافعى ومالكا

ويقول:

وإذا الرياسة لم تعن بسياسة ... عقلية خطئ الصواب السائس

ويقول:

صدقت ياعقل فليبعد أخو سفه ... صاغ الأحاديث إفكا أو تأولها

٧ – طول الأمد

ويرى طول الأمد كفيلا بالنسيان. فيقول:

لأنسينك إن طال الزمان بنا   وكم صديق تمادى عهده فنسى

ويقول :

وسوف ننسى فنمسى عند عارفنا   وما لنا فى أقاصى الوهم أشباح

ويقول فى رسالة الغفران على لسان المهلهل ، حين سأله ابن القارح عن بيت ينسبه إليه ، كان الأصمعى ينكره ويقول إنه مولد ، وكان أبو زيد يستشهد به ويثبته : فيقول المهلهل :

« طال الأبد على لُبَدٍ ، لقد نسيت ما قلت فى الدار الفانية » .

٨ — رسالة الشياطين

ومن أبدع ما قرأناه للمعرى فى هذا الباب ما كتبه عن النسيان فى رسالة الشياطين التى ألحقناها برسالة الغفران فى طبعتها الثالثة . فقد نسى اسمه أحد عارفيه ولم يُثبته ، وجعله محمداً بدلا من أحمد ، ثم نسى مرة ثانية فقصر كنيته فقال : « أبو العلا » بدلا من « أبى العلاء » فعاتبه المعرى متلطفاً وإن بدا من ثنايا عتابه الرقيق ألمه لنسيان صاحبه الذى حداه إلى تبديل اسمه وقصر كنيته . قال : « ودلنى كتابه على أنه يحسبنى قد أضعت وده ، وتناسيت فى طول الزمان عهده . إنى إذاً لمن الظالمين . عرفنى بنفسه أنه من أهل البصرة ، وقد صح معى أنه من أهل البصيرة الساكنة فى خلده ، وتلك أجل من البصرة بلده ، وهل البصرة إلا حجارة بيض ، يطؤها إنس وربيض (يعنى الأغنام ورعاتها) إلى أن يقول : وأهل البصرة — سلمهم الله — ينسبون إلى قلة الحنين . أليس قد مرت به هذه الحكاية ، وهى أنه وجد على حجر مكتوب :

ما من غريب ، وإن أبدى تجلده

إلا سيذكر — عند العلة — الوطنا

وقد كتب تحته : إلا أهل البصرة . فإذا كانت تلك سجيتهم مع أهلهم وأوطانهم ، فكيف بالذين عرفوهم من إخوانهم .

٩ — تغيير الاسم

وهنا خلص إلى غرضه الذى يهدف إليه فقال :

والدليل على ما قلت إنه — أدام الله عزه — لم يثبت اسمى . جعلنى « محمداً » واسمى « أحمد » فإن احتج بأن هذين الإسمين سواء لقوله تعالى : « محمد رسول الله ، والذين معه ... الخ » . ولقوله فى موضع آخر : « برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد » فإن ذلك إنما كان للنبى (ص) خاصة ، لأنه قال : « اسمى فى السماء أحمد ، وفى الأرض محمد » .

فإن قال : « إن العرب قد يكون للرجل منهم الإسمان والثلاثة » واحتج بقول دريد بن الصمة :

« تنادوا فقالوا : أردت الخيل فارسا

فقلت : أعبد الله ذلكم الردى »

وقال فيها :

فإن تُنْسنا الأيام والعصر تعلموا

— بنى قارب — أنا غضاب بمَعْبد

(والمعرى إنما يستشهد بهذا البيت لأن معبداً وعبد الله علمان على شخص واحد) فإن ذلك لا يخلو من أحد أمرين :

« إما أن يكون للرجل اسمان » ولست كذلك ، وإما أن يكون الشاعر غير اسمه للضرورة . ولو كان غير اسمى فى النظم — دون النثر — لكان عذره فى ذلك منبسطاً لأن الشعراء الجلة يغيرون الأسماء . قال الحطيئة :

« وما رضيت لهم حتى رفدتهم

من وابل[1] رهطِ بسطامٍ بأحرام

فيه الرماح ، وفيه كل سابغة   قضّاء محكمةٍ من نَسْج سلام

أراد سليمان عليه السلام . وهذا تغيير على غير قياس لا يسلك مسلك غيره ، من قولهم : عالية وعُلَيَّة . وفاطمة وفطيمة فى القصيدة الواحدة يعنون امرأة بعينها .

ولا مجرى قولهم أبو قابوس وأبى قبيس للنعمان بن المنذر لأن هذا ترخيم التصغير . إلى أن قال : « ولا ندفع أن الشعراء قد سموا الرجل باسم أبيه على سبيل الضرورة وهكذا إلى أن قال :

« وأنا أتسامح له ، وأعدها زيناً لا شيناً ، إذ كانت قَذاةً فى بحرٍ مُزْبد ، بل أثر سجود فى جبهة متعبد . وله أن يقول: إنه تشبث بالكنية فاستغنى بها عن الإسم . أما أنا فحفظت اسمه ونسبه وكنيته ، ولم أنس أيامه ولا مذاكرته . وقد جعلت جواب كتابه نائباً مناب الاجتماع معه ، فلا ينكر علىّ الاسهاب فى المحاورة ، والإكثار من المفاوضة .

(البقية فى العدد القادم)   كامل كيلانى

(١) الوابل : الابل والغنم .

العـــرب واليهود (*)

للدكتور جواد علي

صلات العرب بالعبرانيين صلات قديمة ، ترجع إلى عصور مضت قبل المسيح . وقد تعرضت التوراة والتلمود وكتب يهودية أخرى إلى أخبار العرب . ونحن نعول فى أكثر ما نكتبه عن صلات العرب بالعبرانيين فى العصور التى سبقت الإسلام على هذه الكتب .

وكانت صلات العرب بأرض فلسطين قديمة كذلك ، ولعلها أقدم من علاقة العبرانيين بهذه الأرض . وكلمة «فلسطين» نفسها لا ترجع إلى أصل عبرانى على رأى بعض العلماء[1] ، ولعلها كلمة عربية قديمة . وبهذه الصورة انتقلت إلى اليونانية واللاتينية ثم إلى سائر اللغات العالمية[2]. ولعلها استعملت فى العبرانية المتأخرة عن الاستعمال العربى القديم .

وقد أطلقت هذه الكلمة فى الأصل على المنطقة الساحلية الضيقة التى تقع فى جنوب الكرمل والتى كان يسكنها شعب يطلق عليه اسم « فلسطية philistia »[3] . ثم أطلقت من قبيل التعميم على جميع الأراضى المجاورة لهـــذه المنطقة . وقد وردت اللفظة فى العهد القديم بأشكال مختلفة . جاء فى سفر الخروج « يسمع الشعوب فيرتعدون تأخذ الرعدة سكان فلسطين »[4]. وجاء فى سفر أشعياء « لا تفرحى يا جميع فلسطين لأن القضيب الضارب بك انكسر فإنه من أصل الحية يخرج أفعوان وثمرته تكون ثعباناً ساماً طياراً »[5].

وتاريخ فلسطين تاريخ غامض جداً ، ولا يمكن أن نجد أى أثر للشعب القديم الذى كان يسكن فى هذه البلاد قبل ثلاثة آلاف عام قبل المسيح . والظاهر أن الشعب الذى أقام فى هذه البلاد بعد هذا التاريخ كان على شىء من الإنحطاط . فكانوا يسكنون الكهوف الطبيعية والكهوف الصناعية ، والظاهر أنه لم يكن من السلالة السامية ، وأنه كان من شعوب حوض البحر الأبيض المتوسط . ولم يتمكن العلماء على كل حال من تشخيص ما تبقى من عظام هذا الشعب لقدمها وتلف أكثر ما تبقى منها ، ولعل الحوريين الذين ورد ذكرهم فى سفر التكوين من بقايا هؤلاء[1] :

وأول سلالة سامية هبطت أرض فلسطين ، هى سلالة : « الكنعانيين » أو « العموريين » « Amorites » ، والظاهر أنها نزلت فى هذه البلاد بعد سنة (٢٥٠٠ قبل الميلاد[2]) .

وقد حاول بعض العلماء التفريق بين الكنعانيين والعموريين إلا أنهم لم يتمكنوا من إيراد حجج علمية قطعية ، تؤيد هذا الرأى[3] . وسكن هؤلاء العموريون فى منطقة واسعة هى منطقة الهلال الخصيب فى أرض بابل حيث كون ملكهم « حمورآبى » مملكته فى العراق وسكنوا فى مختلف مدن سوريا كذلك[4] .

ولما كانت أرض فلسطين على اتصال تام بمصر فقد بدأت تتأثر بالحضارة المصرية وبالسياسة المصرية منذ سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد ، ثم أصبحت تابعة للامبراطورية المصرية بعد أن فتحها تحتمس الثالث « Tahutmes. 3 » (١٥٠٠ و.م) ثم امنهوتب الثالث « Amenbotep. 3 » (١٤٥٠ و . م) فكان يحكمها مشائخ باسم حكام مصر[5] .

ولم يتمكن الفرعون أمنهوتب الرابع « Ameubotep .4 » من الإهتمام بشؤون مصر ولا بشؤون سائر الأقطار الأخرى التى كانت تابعة للامبراطورية المصرية ، بسبب انشغاله بالإصلاح الدينى ولاعتقاده بعقيدة التوحيد التى أراد جعلها العقيدة الرسمية للدولة ولمعارضة رجال الدين لهذا الإصلاح . فانتهزت المستعمرات المصرية تلك الفرصة وأخذت تستقل[6]

(*) فصل من كتاب « العرب قبل الاسلام » للدكتور جواد على وهو لم يطبع بعد .

(١) راجع J M N. Jeffries. Palestine the reallity 1939 p,5

(٢) نفس المصدر .

(٣) Hastings. Dictionary of the Bible p, 672

(٤) سفر الخروج إصحاح ١٥ آية ١٤، ١٥ .

(٥) سفر أشعياء إصحاح ١٤ آية ٢٩ وما بعد .

(١) راجع سفر التكوين ١٤ آية ٦ كذلك Hastings p, 673

(٢) نفس المصدر .

(٣) Hastings p, 673

(٤) Hastings p 673. 27

(٥) Hastings p 673

(٦) Hastings p 673 عن النزاع الدينى راجع برستيد « العصور القديمة » .

استقلت فلسطين قبل مجيء القبائل الآرامية إليها ، وقد وردت كلمة « Khabiri » في نص تل العمارنة إلا أن تلك الكلمة لا ترادف كلمة عبري « Hebreur » التي وردت في التوراة[١].

وليست هنالك أدلة علمية تثبت ترادف الكلمتين[٢].

والذي يفهم من المصادر العبرية هو أن اليهود كانوا مستعبدين في مصر ، ثم خرجوا من هذا الإستعباد في أوائل القرن الثالث عشر قبل المسيح إلى أرض كنعان « فلسطين » وكان زعيمهم جميعاً « يشوع »[٣] ، وذلك ما يفهم من سفر يشوع « وكان بعد موت موسى عبد الرب ، إن الرب كلم يشوع بن نون خادم موسى قائلا : موسى عبدى قد مات . فالآن قم اعبر هذا الأردن أنت وكل هذا الشعب إلى الأرض التي أنا معطيها لهم أي لبني إسرائيل . كل موضع تدوسه بطون أقدامكم لكم أعطيته كما كلمت موسى من البرية ولبنان هذا إلى النهر الكبير نهر الفرات . جميع أرض الحيثيين والى البحر الكبير نحو مغرب الشمس يكون تخمكم ، لا يقف إنسان في وجهك كل أيام حياتك[٤] .

والذي يظهر من مصادر قديمة أخرى هو أن اليهود عندما دخلوا أرض كنعان ، دخلوا على صورة قبائل متفرقة وبأوقات مختلفة ، فلم يكن عليهم زعيم واحد . ويؤيد مضمون نص تل العمارنة هذا الرأي غير أنه يحتاج إلى فحص وإلى تدقيق تاريخي عميق ، لمعرفة كيفية هجرة اليهود إلى أرض كنعان[٥] .

لم يتمكن الاسرائيليون من الاستيلاء على أرض فلسطين دفعة واحدة ، بل كان ذلك تدريجيا ، ظلت الأرض الساحلية السهلة في قبضة الفلسطينيين « Philistines » . وهنالك نظريات مختلفة عن أصل هذا الشعب . وتدعي أحدث نظرية من هذه النظريات بأن أصل الشعب الفلسطيني من جزيرة « كريت » على أنها نظرية لا زالت في حاجة إلى أدلة علمية .

وظل « الجبعونيون » « Yibconitcs » والكنعانيون

(١) Hastings p 673 . ونص تل العمارنة
(٢) نفس المصدر .
(٣) راجع Hastings p 673
(٤) راجع سفر يشوع أصحاح ١ آية ١ وما بعد .
(٥) Hastings p 674

والفرزيون والحويون واليبوسيون وأمثالهم في أماكنهم يقاومون اليهود[١] .

وبدخول اليهود إلى أرض فلسطين ولا سيما بعد استقرارهم فيها تكونت الصلات التاريخية فيها بين العرب واليهود . وقد كان العرب يسكنون في أرض فلسطين ذاتها وفي جوار شعوب فلسطين . فلما تمكن اليهود من بعض هذه الشعوب احتكوا احتكاكا مباشرا بالعرب .

يرى المستشرق الإنكليزي مارجليوث أن صلات العرب باليهود مرت في أدوار ثلاثة :

أما الدور الأول فهو الدور الغامض الذي تعرف فيه العرب باليهود بعد دخول اليهود إلى أرض كنعان ، ومعلوماتنا عن هذا الدور لا تكاد تكون شيئاً . وهي تستند على الدراسات المقارنة فقط ، على دراسة الخصائص اللغوية والكلمات المشتركة فيما بين اللغتين العبرية والعربية وعلى الأساطير والعقائد الدينية القديمة ، وتشير مثل هذه الدراسة ، إلى وجود احتكاك قديم بين العرب واليهود[٢] .

وفي المرحلة الثانية اتصل اليهود بالعرب اتصالا مباشراً . وقد ذكر ذلك الإتصال في التوراة في مواضع مختلفة منه ، وقد كانت صلات العرب باليهود صلات حسنة نوعا ما في بادىء الأمر ، ثم ساءت تلك الصلات على أثر ما ظهر للقبائل العربية من ميل العبرانيين إلى الإعتداء عليهم ، ومحاولة الإستيلاء على أرض فلسطين[٣] . وأكثر معلوماتنا عن هذا الدور من التوراة ومن المصادر العبرانية ذاتها ونادراً ما تشير المصادر العربية إلى ذلك .

وفي المرحلة الثالثة والأخيرة ينتقل اليهود من فلسطين إلى الحجاز واليمن والعراق بعد احتلال الرومان لأرض فلسطين وبعد العبث بالهيكل ، فيتشتت شمل اليهود ، وتسقط آخر حكومة لليهود . وتكاد تكون المصادر العربية الإسلامية في طليعة المصادر التاريخية بالنسبة لهذا العهد[٤] .

البقية في العدد القادم

جواد علي

(١) راجع سفر يشوع اصحاح ٣ آية ١٠ وما بعد ومواضع أخرى
(٢) Margoliouth p, 1
(٣) نفس المصدر .
(٤) Margoliouth p, 1

الرغيف القـــومى

للدكتور محمد بهجت

حتى الرغيف نحاول أن نضفى عليه صفة القومية ، فيصبح كالسياسة والتعليم واللباس وغيرها من المسائل العامة ، وتصبح له مشكلة كمشاكلها العديدة ! ولم لا تكون له مشكلة نعطيها من وقتنا وتفكيرنا شيئاً يتناسب مع خطره وأثره فى اقتصاد الشعب وصحته ؟

والرغيف كاللباس فى مصر ، يجمعهما شبه واحد ، فبينما ترى للرءوس أنواعاً شتى من العمائم والقلانس والطرابيش والقبعات ، وللأجسام أشكالا عديدة متباينة من الثياب لا تقارب بينها ولا تشابه ، وللأقدام ضروباً متعددة من الخفاف والنعال والمراكيب والأحذية ، حتى ليخيل للزائر الطارىء أننا أفراد أمم مختلفة امتزجت ببعضها على صعيد واحد ، كذلك نرى لأكثر المدن رغيفاً معيناً ، فلبعض مدن الوجه القبلى رغيفاً بشكل ولون خاصين ، ولبعض قرى الوجهين البحرى والقبلى أرغفة خاصة تشتهر بها ، حتى ليقول لك خبير إن هذا الرغيف من ناحية كذا أو كذا ، وترى للأجانب وأشباههم أرغفة مميزة ذات طابع خاص وهكذا .

وهذا الاختلاف الظاهر فى أشكال وأحجام وألوان الأرغفة يتبعه بطبيعة الحال اختلاف باطنى فى طعومها وتركيبها الكيميائى ومشتملاتها الغذائية ، ومن ثم اختلاف فى تأثيرها على صحة الأجسام ونشاطها . وقد لا يعنينا هنا ظاهر تلك الأرغفة بقدر ما تعنينا قيمتها الغذائية وأثرها فى الأجسام والعقول . ومما لا ريب فيه أن مكونات الرغيف تختلف كثيراً أو قليلا تبعاً للمواد الأولية التى يصنع منها والتى ينتجها إقليم ما . فإذا كان الإقليم ينتج قمحاً فرغيفه من القمح ، وإذا كان ينتج ذرة فرغيفه من الذرة ، بينما يكون الرغيف فى إقليم ثالث خليطاً من القمح والذرة بنسب تتفاوت كثيراً أو قليلا تبعاً لغلبة أحد المحصولين على الآخر وهكذا. ولا ينبغى أن ننسى أن للتقاليد والعادات الموروثة أثراً كبيراً فى عمل الرغيف كما هو الأمر فى عمل بعض ألوان الطعام الأخرى .

ومع قيام مثل هذه الاعتبارات وغيرها نرى أن الأرغفة المصنوعة من القمح تختلف فيما بينها أيضاً . فبعضها يكون أبيض اللون ناعماً قوامه الدقيق الخالص ، وبعضها أسمر خشنا نوعا تدخله كل عناصر الطحين ، وبعضها يكون بين هذه وتلك . ومع أنها كلها مصنوعة من القمح أو من بعض أجزائه دون الأخرى فان لكل منها تأثيراً مختلفاً فى تغذية الجسم كما سنرى فيما بعد .

دخلت مخبزاً من المخابز الأفرنجية أطلب شيئاً معيناً فشاهدت أرغفة من الخبز الأبيض الجميل مرتبة بجانب بعضها بشكل يثير الشهية ويغرى بالشراء ، ولا سيما بعد أن احتجبت عنا طوال مدة الحرب . فابتعت شيئاً منها وحملته إلى بيتى وهناك أكلناه فى شراهة ولذة عجيبتين . ولم لا ؟ إن نظافتها وطعمها ورائحتها لتبرز ذلك وتدفع إليه . وعند ذلك ذكرت رغيفنا الذى نأكله الآن بعد أن وضعت الحرب أوزارها وما به من عيوب وشوائب تجعل المرء يأكله فى تحفظ ، ثم ذكرت رغيفنا الذى كنا نأكله طول سنى الحرب — ذلك الرغيف المخيف الذى كان يصنع من القمح مخلوطاً بالذرة أو الأرز ، وبكل ما يمكن أن يختلط به من ردادة وسوس وطين وحصى وخيوط وحشائش أخرى تطحن معه وتعجن وتخبز ، وغير ذلك مما لا يعلمه إلا الله والذين كانوا يصنعونه ، ولا يعلمه أحد ممن يأكلونه ، حتى إذا خرجت منه أرغفة جاءت بشعة تنبو عنها العين وتعافها نفس الحيوان فما بالك بنفس الانسان . ثم ذكرت ذلك الرغيف الذى كنت إذا اقتطعت منه لقمة أحاول مضغها وازدرادها لم أستطع فألفظها من فى محنقاً مغضباً . ذكرت ذلك مما يذكره الكثرة من هذا الشعب المسكين الذى يخيل إلى أنه أذل بفرض هذا الرغيف البغيض الملون عليه فرضاً . ولعمرك لا يمكن أن يستذل شعب بأكثر من أن يلقى إليه برغيف هذه بعض صفاته . وتزداد بشاعة هذا الذل إذا علمنا أنه ضرب على شعب مصر صاحب أخصب أرض فى العالم ، الذى تحترف كثرة أهله الزراعة والذى أرغم على زرع ٦٠ بالمائة من أرضه حبوباً ومع ذلك لم يستطع أن يأكل رغيفاً نظيفاً ، ذكرت ذلك وذكرت معه دوى الشكاوى التى جأر الناس بها على غير جدوى ،

وذكرت الكثيرين ممن أصابهم السوء وانتابتهم العلل من جراء سوط العذاب الذى سيطوا به فى غير شفقة أو رحمة . ذكرت كل ذلك وكثيراً غيره ثم هززت رأسى أسى وقلت عسى أن يكون هذا بعض الثمن الذى اقتضاه نصر الديموقراطية !

وأخيراً انكشفت الغمة وعاد الرغيف الأبيض — وقدعلت مكانته وقدر الناس قيمته — وها نحن أولاء نأكل منه شبع بطوننا ، واختفى الرغيف الأسود أو كاد . ولكن مهلا فما الأول بخير كله ولا الثانى بشر كله . فقد ذكرت بعد الذى ذكرته أن الخبز الأبيض مصنوع من دقيق القمح الصافى بعد أن خلص بالغربلة من الردادة والنخالة التى هى عبارة عن القشور اللابسة للحبوب ، وكذلك من حبيبات الأجنة التى بأطارف حبات القمح ، فقلت بذلك قيمته الغذائية لحد كبير ، إذ تذهب مع النخالة مواد غذائية عظيمة الفائدة يحتاج إليها الجسم فى غذائه ونموه ، أودعتها الطبيعة الحبوب المختلفة ولكن الإنسان يفصلها جهلا ويرى بها إلى الحيوان والطير لتعلفها فتصح هذه ويعتل هو . أما هذه المواد فهى بعض العناصر المدنية والحوامض العضوية والفيتامينات والالياف . وهذه كلها كان يحتويها الرغيف اللعين الذى لولا قذارة فيه ولونه به لكان صالحاً للجسم أى صلاح . وكلما بولغ فى تبييض الدقيق ازداد فقراً فى العناصر الغذائية .

وهاك بعض الفقد الذى يحصل من تصفية الدقيق الأبيض الناصع :

١٠٠ ٪ من الألياف وفيتامين د والكاروتين ومعدن المنجنيز .

٨٥ ٪ من الثيامين وحامض النيكوتين (كلاهما فيتامين) والحديد .

٧٥ ٪ من الفوسفور والبوتاسيوم والنحاس والريبوفلافين (والأخير فيتامين) .

٥٠ ٪ من الكالسيوم وبعض فيتامينات أخرى .

١٣ ٪ من الزلال وحوامض زلالية هامة .

وعلى ذلك لا ينبغى أن نفرح الفرح كله بأكل الرغيف الأبيض ، بل يجب أن نصنع الرغيف الصحى ونأكله ، ولايخرج هذا الرغيف عن حبة القمح بكل مشتملاتها الطبيعية .

ولما شعر العلماء بسوء التغذية تتفشى بين عامة الشعب فى أمريكا فكروا فى معالجة هذه المسألة باضافة بعض الفيتامينات أو بعض المواد الغذائية الأخرى كالزبيب ولكن هذا لم يأت بالفائدة المطلوبة ، ففكروا أخيرا فى عمل رغيف قوى يأكله جميع أفراد الشعب مصنوع من الدقيق الأبيض مضافا إليه قليل من اللبن الفرز وبعض الفيتامينات الضرورية كالتى فصلت من الدقيق ، ولا زالت هذه أمنية تجول فى أذهان علماء التغذية هناك ولما تخرج إلى حيز التنفيذ بعد .

أما الإنجليز فقد وفقوا إلى اتخاذ رغيف قوى بمعنى الكلمة بل قل إنهم اضطروا إلى اتخاذه اضطرارا ، وذلك عند ما نشبت الحرب وقل الوارد وأصبح الإقتصاد فى الغذاء أمرا محتوما ، والمحافظة على الصحة العامة بين أفراد الشعب الذى ينتج الميرة والذخيرة للجيش المحارب فى المرتبة الأولى من الأهمية .

وبعد دراسة طويلة فى بداية الحرب قرر علماء التغذية الإنجليز الحصول على دقيق يعادل ٨٠ ٪ من وزن القمح النظيف بعد أن كان المتحصل منه قبل الحرب ٧٥ ٪ ، وهذا معناه إضافة ٥ ٪ من قشرة الحبة إلى الدقيق الأبيض ، وبعد ذلك بقليل قررت الحكومة زيادة النسبة إلى ٨٥ ٪ وذلك بعد أن أثبت العلماء أن خبزا يصنع من هذا الدقيق يكون صحيا ومحتويا على جميع العناصر الغذائية اللازمة لسلامة الجسم والعقل . ومن ثم كان الشعب الإنجليزى كله يأكل فى زمن الحرب خبزا موحداً مصنوعا من دقيق القمح النظيف غير مخلوط بذرة أو أرز أو غيرهما من الحبوب الأخرى ولم يستبعد منه إلا ١٥ ٪ من وزن القمح أى الأجزاء الخشنة فقط ، ومع ذلك فإن هذا الجزء المستبعد به عناصر غذائية هامة أيضا . وكان الخبز المصنوع من هذا الدقيق لذيذا شهيا إلا أنه أقل هضما من خبز ما قبل الحرب بنحو ٣ ٪ غير أنه يفضله من حيث احتوائه على المواد الغذائية . ويكفى الفرد الكامل النمو رغيف واحد فى اليوم زنته ثلاثة أرباع الرطل يحصل منه على أكثر ما يحتاجه جسمه من الفيتامينات وغيرها من مقومات الحياة . وفى يناير من عام ١٩٤٥ أرادت الحكومة الإنجليزية الرجوع إلى حالة ما قبل الحرب بالتدريج فقررت خفض نسبة الدقيق المستخرج من القمح من ٨٥ إلى ٨٠ ٪ ظنا منها أنها

القضايا الكبرى فى الاسلام :

مجرمو الحرب في فتح مكة

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

حكم أسير الحرب فى الاسلام القتل أو الاسترقاق أو المن بفداء أو غير فداء ، وقد جاء فى كتاب المبسوط للسرخسى أن بعض الفقهاء ذهب إلى أنه لا يجوز قتل الأسير ، واستدل على ذلك بأن القتل لم يذكر فى قوله تعالى فى الآية (٤) من سورة محمد (فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما مناً بعد وإما فداء) ولو صح هذا لقضى بأنه لا يجوز استرقاق الأسير ، لأنه لم يذكر فى تلك الآية أيضا ، وهذا هو حكم الأسير بالنظر إلى اشتراكه فى القتال ، فإذا كان عليه تبعات أخرى كان عليه عقابها الخاص بها ، ومثل هذا يسمى الآن مجرم حرب .

وقد كان من مجرمى الحرب فى فتح مكة خمسة عشر شخصا :

١ — عبد الله بن خطَل ، وكان ممن قدم المدينة قبل فتح مكة وأسلم ، وكان اسمه عبد العزى فسماه النبى صلى الله عليه وسلم عبد الله ، وبعثه لأخذ الصدقة ، وبعث معه رجلا من الأنصار يخدمه ، فنزل منزلا وأمر الأنصارى أن يذبح تيساً ويصنع له طعاما ونام ، ثم استيقظ فلم يجده صنع له شيئا ، فعدا عليه فقتله وارتد مشركا ، وكان شاعرا فجعل يهجو النبى صلى الله عليه وسلم فى شعره .

٢ ، ٣ — قينتان لعبد الله بن خطل : وهما فرتنى وقُريبة ، وكانتا تغنيانه بما كان يهجو به النبى صلى الله عليه وسلم .

٤ — هبَّار بن الأسود ، وكان قد عرض لزينب بنت النبى صلى الله عليه وسلم حين هاجرت ، فنخس بها الجمل حتى سقطت على صخرة وأسقطت جنينها ، ولم تزل مريضة حتى ماتت .

٥ — الُحوَيرث بن نُقيد ، وكان العباس بن عبد المطلب حمل فاطمة وأم كلثوم بنتى النبى صلى الله عليه وسلم من مكة يريد بهما المدينة ، فنخس بهما الجمل فرمى بهما الأرض ، ثم شارك هباراً فى نخس جمل أختهما زينب .

٦ — مقيس بن صُبابة ، وكان قد أسلم ثم أتى على أنصارى فقتله ، وكان الأنصارى قتل أخاه هشام بن صبابة خطأ فى غزوة ذى قرد ، ظنه من العدو ، فجاء مقيس فأخذ الدية ثم قتله وارتد ورجع إلى قريش

٧ — وحشِيُّ بن حرب ، وكان قد قتل حمزة عم النبى صلى الله عليه وسلم غيلة فى غزوة أُحد ، وكان حمزة قد قاتل فى ذلك اليوم قتالا شديداً ، وكان يقاتل بسيفين ، وكان آخر قتيل قتله

بذلك ترفه عن الشعب ، فذعر العلماء من هذا القرار ونوهوا بما سيفقده الرغيف القوى من المواد الغذائية الهامة مما قد يؤثر على صحة أفراد الشعب وطالبوا بإبقاء النسبة التى كانت مقررة فى زمن الحرب لثبوت فائدتها ثبوتا قاطعا . ولا يفوتنى أن أقرر هنا أن رغيف الجيش الروسى كان من القمح الخالص بجميع أجزائه .

فلم لا نفيد من هذه التجربة القيمة ونعمل على إيجاد رغيف قوى تأكله الكثرة الغالبة من الشعب تتوفر فيه العناصر الغذائية حتى لو اضطررنا إلى خلطه بنسبة صغيرة من نوع آخر من الدقيق على أن يكون طيب الرائحة لذيذ الطعم ، ومثل هذا الأمر يحتاج إلى دراسة وافية تقوم بها هيئة مكونة من الطبيب والإجتماعى والكيميائى والضابط الحربى وصاحب المطحن والمخبز والمزارع وغيرهم على أن تؤدى هذه الدراسة إلى وضع تشريع يحدد تركيب هذا الرغيف ودرجة نظافته بحيث يفيد منه الشعب فى الظروف العادية وفى الظروف الطارئة كأية حرب محتملة الوقوع حتى لا ننكب برغيف خطر كالرغيف الذى فرض علينا فى هذه الحرب الأخيرة .

ورجاؤنا أن نصل فى هذا إلى قرار سريع ، وأن لا يكون نصيب الرغيف القوى ما للسياسة والتعليم واللباس وغير ذلك من تذبذب وتأرجح واختلاف فى وجهات النظر وعدم الاستقرار ، وأن لا يبتلى بلجنة تنعقد وتنحل بضع مرات ثم لا تنعقد بعد ذلك أبداً فيموت المشروع بين يديها .

دكتور محمد بلابوت

قسم البساتين

سباع بن عبد العُزى ، فلما أكبّ عليه ليأخذ درعه قتله وحشى ابن حرب ، وهو غلام جبير بن مطعم .

٨ — هند بنت عُتْبة زوج أبى سفيان بن حرب ، وكانت قد مثّلت بقتلى أحد من المسلمين ، فكانت هى ونساء معها يُجدّعن الآذان والأنوف ، حتى اتخذت منها خدما وقلائد ، وأعطت خدمها وقلائدها وقُرْطَيْها وحشى بن حرب ، وبقرت عن كبد حمزة فلاكتها فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها .

٩ — عبد الله بن أبى سرح ، وكان قد أسلم وكتب للنبى صلى الله عليه وسلم ، فزعم أنه كان يملى عليه — عزيز حكيم — فيكتب — غفور رحيم — ثم يقرأ عليه فيقول : نعم سواء ، فإن كان يوحى إليه فقد أوحى إلىّ ، وإن كان الله ينزله فقد أنزلت مثل ما أنزل الله .

١٠ — عِكرمة بن أبى جهل ، وكان من أشد الناس على النبى صلى الله عليه وسلم ، وبلغ فى أذى المسلمين بمكة ما بلغ .

١١ — كعب بن زُهير ، وكان يهجو النبى صلى الله عليه وسلم بشعره ، ويُعَيِّرُ أخاه بُجَيْراً لإسلامه .

١٢ — الحارث بن هشام ، وكان شديداً على النبى صلى الله عليه وسلم ، وكذلك كان شديد الأذى على المسلمين بمكة .

١٣ — زهير بن أبى أمية ، وكان شديداً فى كفره كعكرمة بن أبى جهل ، والحارث بن هشام .

١٤ — صفوان بن أمية ، وكان من أشد الناس عداوة للنبى صلى الله عليه وسلم ، ومن أشدهم أذى للمسلمين بمكة .

١٥ — سارَةُ مولاة لبنى المطلب ، وكانت مغنية بمكة ، فقدمت على النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة تشكو الحاجة ، وتطلب الصلة ، فقال لها : ما كان فى غنائك ما يغنيك . فقالت : إن قريشاً منذ قتل من قتل منهم ببدر تركوا الغناء . فوصلها وأوقر لها بعيراً طعاماً ، فرجعت إلى مكة ، وكان ابن خَطَل يلقى إليها هجاء النبى صلى الله عليه وسلم فتغنى به .

فلما كان يوم الفتح نادى النبى صلى الله عليه وسلم بأمان من يترك القتال من قريش ، واستثنى منهم هذا العدد لحكم بإهراق دمائهم ، وأمر المسلمين بقتلهم لهذه التبعات التى أخذت عليهم ، وكانوا بها من مجرمى الحرب الذين يؤاخذون على إجرامهم بعد أسرهم .

فأما عبد الله بن خَطَل فإنه ركب فى ذلك اليوم فرسه ، ولبس درعه وأخذ بيده قناة ، وصار يُقسِمُ لا يدخلها محمد عنوة ،

فلما رأى خيل المسلمين خاف وذهب إلى الكعبة وتعلق بأستارها ، فرآه النبى صلى الله عليه وسلم عند طوافه وهو بهذه الحالة فقال : اقتلوه ، فإن الكعبة لا تعيذ عاصياً ، ولا تمنع من إقامة حد واجب . فقتله أبو برزة الأسلمى .

وأما فرتَنىُ وقُرَيْبةُ قينتا ابن خطل فإن أولاهما وهى فرتنى أسلمت فلم تقتل ، ولم تسلم قريبة فقتلت .

وأما هبَّارُ بن الأسود فإنه هرب واختفى ، ثم جاء النبى صلى الله عليه وسلم فاعترف بذنبه وأسلم فعفا عنه .

وأما الحوَيرث بن نُقَيْذ فإنه دخل بيته وأغلق عليه بابه ، فقصده على بن أبى طالب فقيل له : هو فى البادية . فتنحى على عن بابه ، فخرج يريد أن يهرب من بيت إلى آخر ، فتلقاه على فضرب عنقه .

وأما مِقيس بن صُبابة فقتله نُمَيْلة بن عبد الله الليثى وهو رجل من قومه .

وأما وحشىُّ بن حرب فإنه هرب إلى الطائف ، ولما خرج وفد الطائف ليسلموا ضاقت عليه المذاهب ، فخرج حتى قدم على النبى صلى الله عليه وسلم وأسلم ، فعفا عنه ثم قال له : أقعد فحدثنى كيف قتلت حمزة ؟ فحدثه بذلك إلى أن فرغ منه ، فقال له : ويحك غيب وجهك عنى . فكان يتنكبه حيث كان لئلا يراه حتى قبضه الله .

وأما هند بنت عُتبة فإنها اختفت فى بيت زوجها أبى سفيان ، ثم أسلمت وأتت النبى صلى الله عليه وسلم بالأبطح فقالت : الحمد لله الذى أظهر الدين الذى اختاره ، لتمسنى رحمتك يا محمد ، إنى امرأة مؤمنة بالله مصدقة به . ثم كشفت نقابها فقالت : أنا هند بنت عتبة . فقال لها : مرحباً بك ، وعفا عنها .

وأما عبد الله بن أبى سرح فإنه لجأ إلى عثمان بن عفان ، وكان أخا له من الرضاع ، فقال : يا أخى استأمن لى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يضرب عنقى . فغيبه عثمان حتى هدأ الناس واطمأنوا ، ثم أتى به النبى صلى الله عليه وسلم فصار يقول : يا رسول الله أمنته فبايعه . والنبى صلى الله عليه وسلم يعرض عنه ثم قال : نعم . فبسط يده فبايعه .

وأما كعب بن زهير ، فخاف وخرج حتى قدم المدينة بعد رجوع النبى صلى الله عليه وسلم من فتح مكة ، فأسلم أمامه ومدحه بقصيدته :

« بانت سعاد فقلبي اليوم متبول »

فلما وصل إلى قوله فيها :

إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول

رمى إليه بردة كانت عليه ، فلما ملك معاوية بذل له فيها عشرة آلاف درهم ، فقال له : ما كنت لأوثر بثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أعطانيه أحدا .

وأما عكرمة بن أبي جهل فإنه هرب ليلقي نفسه في بئر ، أو يموت تائها في البلاد ، وكانت امرأته أم حكيم أسلمت فاستأمنت له النبي صلى الله عليه وسلم فأمنه ، فخرجت في طلبه حتى أدركته فرجع معها فأتت به النبي صلى الله عليه وسلم فأسلم .

وأما الحارث بن هشام وزهير بن أبي أمية فإنهما هربا واختبآ في بيت أم هانىء بنت أبي طالب فأجارتهما ، وقد أجاز النبي صلى الله عليه وسلم جوارها ، ثم جاءته بهما فأسلما .

وأما صفوان بن أمية فاختفى وأراد أن يلقي نفسه في البحر ، فأتى ابن عمه عمير بن وهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال له : يا نبي الله ، إن صفوان سيد قومه ، وقد هرب ليقذف نفسه في البحر ، فأمنه فإنك أمنت الأحمر والأسود . فقال له : أدرك ابن عمك فهو آمن . فخرج فأدركه وأتى به النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إن هذا يزعم أنك أمنتني . قال : صدق . فقال : أمهلني على الشرك شهرين . فقال : لك أربعة أشهر . ثم خرج مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة حنين ، فلما غنم الغنائم أعطاه مائة من الإبل ثم مائة ثم مائة ، ثم رآه يرمق شعبا مملوءا نعما وشاء فقال له : يعجبك هذا . قال : نعم . قال : هولك وما فيه . فقبض صفوان ما في الشعب وقال : إن الملوك لا تطيب نفسها بمثل هذا ، ما طابت نفس أحد قط بمثل هذا إلا نبي ، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله . فأسلم وترك المدة التي كان طلبها .

وأما سارة مولاة بني المطلب فإنها هربت واختفت ، ثم استؤمن لها النبي صلى الله عليه وسلم فأمنها ، فجاءته فأسلمت .

فقتل من هذا العدد الذي كان مجرم حرب قاتلان : هما عبد الله بن خطل ومقيس بن صبابة ، وقد قتل عبد الله بن خطل بعد استعاذته بالكعبة ، فلم تنجه استعاذته بها من القتل ، لأنه كان شديد الجرم بقتله ذلك الأنصاري الذي كان يخدمه ، والكعبة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لا تعيذ عاصيا ، ولا تمنع من إقامة حد واجب . وقد قتل منهم بعد ذلك اثنان لم يتول النبي صلى الله عليه وسلم قتلهما ، ولو أنهما أسلما وطلبا الأمان منه لأمنهما كما أمن الذين كان جرمهم مثل جرمهما ، وهما الحويرث بن نقيذ الذي قتله علي بن أبي طالب ، وقريبة مولاة عبد الله بن خطل

والمهم في هذه القضية ما حصل من عفو النبي صلى الله عليه وسلم عن أكثر ذلك العدد ، فهل حصل هذا بما له من حق العفو ، فرأى أن ما ارتكبوه من جرم لم يصل إلى القتل حصل في حال لهم فيها شيء من العذر ، فيكون أخذهم بالعفو أولى من أخذهم بالعقوبة ، أو حصل هذا لأنهم أسلموا والاسلام يجبُّ ما قبله ، كما قال تعالى في الآية (٣٨) من سورة الأنفال : (قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين) .

وقد اختلف العلماء في معنى هذه الآية ، فذهب بعضهم إلى أن المراد أنهم إن ينتهوا عن عداوة النبي صلى الله عليه وسلم يغفر لهم ما قد سلف منها ، وذهب بعضهم إلى أن الكفار إذا انتهوا عن الكفر وأسلموا يغفر لهم ما قد سلف من الكفر والمعاصي ، ويخرجون منها كما تنسل الشعرة من العجين ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : الاسلام يجب ما قبله . وقالوا : الحربي إذا أسلم لم يبق عليه تبعة قط ، وأما الذمي فلا يلزمه قضاء حقوق الله ، وتبقى عليه حقوق الآدميين .

وما حصل في هذه القضية يشهد للذين ذهبوا إلى أن الاسلام لا يسقط شيئا من تبعات الدنيا ، ولو كان الذي أسلم حربيا ، ولهذا قتل النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله بن خطل مع استعاذته بالكعبة ، ولو كان الاسلام ينجيه من القتل لعرض عليه الاسلام قبل أن يقتله ، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يأمر سراياه بأن يعرضوا الاسلام على أعدائهم قبل أن يقاتلوهم ، ومثل هذا يجعل الإسلام خالصاً لله تعالى ، ولا يجعله وسيلة للتخلص من تبعات الدنيا

فلم يبق إلا أن النبي صلى الله عليه وسلم عفا عنهم بما له من حق العفو ، ليضرب بذلك مثلا صالحا في معاملة مجرمي الحرب ، فيعلم الناس أنه لا يجب التشديد في أمرهم ، وأنه لا يصح أن يؤاخذوا إلا بمثل ما أوخذ به عبد الله بن خطل ، وقد قال الأول في أمثالهم : القدرة تذهب الحفيظة .

عبد المتعال الصعيدي

أنشودة المشاعل

في عيد «الفاروق»

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

مَنِ القبسُ الذى طارا   يشقُّ دُجًى وأنهارا ؟
ويَطوى العشبَ ، والغارا   ويسكبُ أينما سارا
ضياءً يبهرُ الشطآن ؟ !

تدفق منـــه بالأنوارْ   شعاعٌ يسحرُ الأبصارْ
فتحسَبُه مِنَ الأقدارْ   أذانًا بالليـــالى دارْ
ليوقظ فجرَها الوسنان !

لهيبٌ واثبٌ خفّاقْ   سناهُ يفجِّرُ الأشواقْ
إذا ظمِئَتْ له الآفاق   وأهلك زيتَهُ الإحراق
سقته سواعِدُ الفتيان !

ســـقته بعزمِها الجبَّار   فراح يُسابقُ الإعصار ؛
ســـواعدُ فتيةٍ أحرار   توهَّجَ فوقَها بالنــــار
هوًى مُترنِّحٌ سكران !

أضاء الكرنكُ المسحور   وشعشع حوله الدَّيجور
بنثرٍ معابدٍ وقصـــور   وغيبِ ممالكٍ وعصور
وفنٍّ حيَّرَ الأزمان !

وساق لمصرَ من دنياه   تمائِمَهُ ، وسرَّ علاه
إلى «الفاروق» طار هواه   وشق طريقَه لضُحاه
شعاعًا يوقظ الأوطان !

هفا متطلّعًا للقـــاه   حبيبُ ضِفافِه ، وأخاه
مِنَ الجبل الذى يهواه   ويعشق أرزَهُ ورُباه
أتاه مُحيِّيًا «لبنان» !

شُعاعا عزَّةٍ وجلال   ورمزا صَحوةٍ ونِضال
على نهَرٍ ، وفوقَ جبال   طوى ركباهما الأجيال
إلى كفَّيهِ يستبقان !

فيا فاروق هـذا النور   ضياؤُك سابغٌ منشور
يطوف على الحمى ويدور   كرِفٍّ للعُلا مسطور
ليقرأ وحيَه الهرَمان !

وهذا الحبُّ يا «عَبْدين»   حياةٌ للعبادِ ودين !
لِبابكِ خفَّ كلُّ قطين   تقودُ خطاهُ نارُ حنين
كأنَّ قبابكِ الحرَمان ! ؟

محمود حسن إسماعيل

أنرلسنز

ميـــلاد ملك

للشاعر محمد البرعى

شارف الأرض وحيّا فى ابتسام   فسألنا من على الأرض هفا
وتلفتنا لأطيـــاف الغمام   لم نجـــد إلا شعاعاً مرهفا
كلما أمعن سيراً فى الظلام   شقق الفجر وأسنى وصفا
ملك جاء إلى دنيـا الأنام   أم على أجفاننا حـــلم غفا

هـــذه أنسامه دلت عليه   حينما لاح مع الصبح وبان
كل روح طيرت قلباً إليه   وتملت من مرائيه الحسان
الهدى والنور والسحر لديه   معجزات للورى فى كل آن
لو تمس المزن إحدى راحتيه   جاءنا الوبل بخيرات الزمان

صولجان الملك ملء الراحتين   وعلى المفـــرق تاج لمعا
سجد النيل له بالضفتين   حينما رف به وارتفعـــا

وشدت طيبة لحن الحرمين … وعلى سينـاء نور سطعا
ورنا الشرق وحيا باليدين … لوليـد كنبى طلعا

ومضى فاروق يسمو قدما … نحو عرش تالد المجد عتيق
ثابت الأصـل له فرع سما … مده عهد من الماضى السحيق
هذه أعلامـه تطوى السما … ولها ظـل مديد وبريق
عرش من أحيا بمصر الهمما … جد إسماعيل والبيت العريق

تاجه للشرق نور الأرب … وهوى يخطر فى أحلامه
وحمى مغناه حصن العرب … تستمد العزم من إقدامه
زاره بالأمس من أرض النبى … عاهل كالسبط فى إسلامه
طيب الجـد نقى النسب … تجتلى معناه من أعلامه

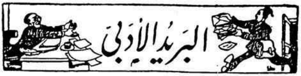
وعلى النيل تلاقى الأخوان … تاج فاروق وتاج ابن سعود
موكب يوحى بآيات المعانى … ولقاء خط ذكراه الخلود
وعهود حققت حلم الأمانى … لشعوب شفها مطل الوعود
وحدة قامت على أقوى كيان … غيلها الشرق تفديه الأسود

شعلة تطوى دياجير الدروب … تحمل البشرى لمن تفديه نفس
نورها من نور فاروق الحبيب … فهى شمس قد تسامت فوق شمس
فى سناها فرحة الروح الغريب … حينما يلقى حبيبا بعد يأس
إنها من ذلك الوادى القريب … من ربى لبنان جاءت يوم عرس

ليلة الميلاد حياها الشباب … عامر الإيمان مرفوع الجبين
إنها فتح لوعد مستجاب … رب وعد جاء بالحق المبين
شعلة الفاروق سيرى فى الشعاب … نجمة تسرى بليل الدلجين
وأضيئى فى دياجير السحاب … واخلدى ما شئت فى كف السنين

ليلة الميلاد عيـد أى عيد … هات كأسى واسقنى من خمرها
ليلهـا راح وشعر ونشيد … نغمة مستلهم من سحرها
فى سماها فجر ميلاد سعيد … رفرفت أعلامـه فى غمرها
إنه فاروق ذو الملك العتيد … فرحة الدنيا ومجلى نورها

محمد البرعى



الأمير شكيب أرسلان والنشاشيبي :

أضيف هذه (الحاشية) إلى الحديث عن (أبي بكر الخوارزمي) في « الرسالة » الغراء ٦٥٧ ، القسم ٢٥ (في إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) :

يطلع العلامة الأستاذ أمير البيان الأمير شكيب أرسلان على خطبة النشاشيبي (كلمة في اللغة العربية) ، فيبعث إليه بهذا الكتاب :

أخي العلامة الأستاذ :

أهنيك بهذه الخطبة في محاسن اللغة العربية ، لا بل أهنئ هذه اللغة الشريفة بك ، وأرجو لها من خير الحافظين بقاءك . كتبت إلى مصر بأن يرسلوا لك نسخة من (حاضر العالم الإسلامي)، وعليك أن تسدل عليه ذيل الستر ، لأنه كتب وأنا أجوب في الأقطار ، ومن قطار إلى قطار ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته

(مرسين ٨ حزيران ١٩٢٥) شكيب أرسلان

وينشر الأمير — بعد الكتاب — مقالة بليغة في مجلة (الزهراء) الغراء ، منها قوله :

« قرأت هذه الخطبة أولا في الجرائد ، وفتنت بها ، وأعجبت بماحوته من جزالة لفظ ، وبلاغة معنى ، وسداد حجة . ثم أهديت إليّ في كتاب نفيس الطبع ، بهج النظر ، لم أر أليق منه قالباً لتلك الروح العالية ، ولا أبدع صدفة لهاتيك الدرة الغالية .

فذ الآن أقول : إنه كتاب مع وجازته قد زخر عبابه ، ومع قلة قراطيسه قد قرطس نشابه ...

ولتهنأ العربية بهذا النصير قليل النظير ، والعاشق الساهر الليالي في رعي نجوم التحقيق والتنقير . ومع أني هجرت الشعر لم أملك نفسي أن قلت :

قد قالت اللغة الفصحى بغربتها قد أحسن الله إسعافي بـ(إسعاف)
هو المجيب لمن قد بات ينشده انصر أخاك لدى ظلم وأس عافى »

ولما قرأ النشاشيبي تلك الحواشي المظيمة في (حاضر العالم الإسلامي) . أرسل إلى الأمير بكتاب جاء فيه :

« ذكرتني هذه الحواشي بقولين لإمامين : قيل لأبي بكر الخوارزمي عند موته : ما تشتهي ؟ قال : النظر في حواشي الكتب . وقال أستاذ الدنيا جار الله : الزيت مخ الزيتون ، والحواشي مخة المتون » .

فبعث الأمير إلى النشاشيبي بهذا الكتاب :

أخي الأستاذ الأجل :

شفيت غليلي بهذين الشاهدين اللذين جئت لي بهما على فائدة الحواشي ، ومن كان يقدر أن يأتي بهما غيرك ؟ لله درك ! وقد أتممت تحبير كتاب اسمه « أناتول فرانس في مباذله » ، يحتوي ترجمة كتاب لكاتب سره (بروسون) ، وخلاصة آخر لصديقه (سيغور) ، وتلخيص لتأبين أدباء فرنسة (لفرانس) يوم وفاته . ولما كان فيه من الأعلام الكثيرة والمسائل الفلسفية والاجتماعية والأدبية ما لا بد من تفسيره إعانة للقارئ الشرقي على فهم الكتاب ، فقد جاءت في هذا التأليف أيضاً حواش ، إن لم تكن على نسبة حواشي (حاضر العالم الإسلامي) : فهي حواش لا بأس بها ، وما كان أسرعني إلى تأييد وجهي في (الحواشي) إلى نقل كلام ذينك الإمامين عن الأستاذ المحقق النشاشيبي ، ولعمري لو أنجدتني بجيش مجر ومال دثر ، ما أحسست فضل تلك النجدة كما أحسست بها عند ما قرأت ذينك الشاهدين ...

(مرسين ٢٤ تموز ١٩٢٥) شكيب أرسلان

مد الله في عمر الأمير ، وأعز به دولة الأدب !

« السهمي »

تهجم على التخطئة « السلام عليكم » :

إلى أخي البصام :

السلام عليكم ورحمة الله ، وبعد ، فقد رأيتك تستغرب هذه التحية المباركة التي يهديها الرجل إلى أخيه ، وأتاك هذا الاستغراب من أن قوماً زعموا أن « القاعدة » هي أن نبتدئ الكتاب بـ (سلام عليك أو عليكم) ، بدون (ال) التعريف ، فإذا جاء الختام قلنا : (السلام عليك أو عليكم) .. وأن بدء الكتاب بقولنا (السلام عليكم) خطأ شائع في هذه الأيام ! ! الخ .

واستدللت بقول الله تعالى في كتابه الكريم : « سلام عليكم طبتم ... » وقوله سبحانه : « سلام قوم منكرون » في أكثر من ثلاثين موضعاً على وجوه مختلفة . وصدق الله الذي يقول في

سورة مريم : « والسلام عليّ يومَ ولدتُ ويوم أموتُ ويوم أبعث حياً » بـ (ال) التعريف ، وصدق الله الذى يقول فى سورة طه لموسى وهرون : « فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى» بـ (ال) التعريف أيضاً . فلا تستغرب ياسيدى!

ولا تستغرب أيها السيد الكريم إذا علمت أن أهل القبلة جميعاً كانوا ، ولا يزالون ، وسيظلون إلى آخر الدهر ، يقول الرجل منهم إذا انتهى من سجوده وقعد للتشهد : « السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته » . ولا تستغرب إذا أنت قرأت فى صحيح البخارى فى باب (ما يتخير من الدعاء بعد التشهد ليس بواجب) : « حدثنا مسدَّد ، قال حدثنا يحيى ، عن الأعمش ، حدثنى شقيق ، عن عبد الله قال : كنا إذا كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم فى الصلاة قلنا : السلام على الله من عباده ، السلام على فلان وفلان . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : لا تقولوا ، السلام على الله ، فإن الله هو السلام ، ولكن قولوا : التحيات لله والصلوات والطيبات ، السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين — فإنكم إذا قلتم أصاب كل عبد فى السماء ، أو بين الأرض والسماء — أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله . ثم يتخير من الدعاء أعجبه إليه فيدعو» . وكذلك فى باب (التشهد فى الآخرة) من صحيح البخارى

ولا تستغرب ياسيدى أيضاً إذا مر بك وأنت تقرأ فى مسند أحمد بن حنبل ج ٤ ص ٤٣٩ من حديث عمران بن حصين : « إن رجلا جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : السلام عليكم ، فرد ، ثم جلس فقال (يعنى رسول الله) : عشر . ثم جاء آخر فقال : السلام عليكم ورحمة الله ، فرد ، ثم جلس ، فقال : عشرون . ثم جاء آخر فقال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، فرد ، ثم جلس ، فقال : ثلاثون » . أقول : يعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم : عشر حسنات ، وعشرين حسنة ، وثلاثين حسنة . وكل ذلك بـ (الـ) التعريف أيضاً .

ولا تستغرب يا سيدى إذا رأيت فى مادة (سلم) من لسان العرب :« ويقال السلام عليكم ، وسلام عليكم ، وسلام ، بحذف عليكم . ولم يرد فى القرآن غالباً إلا منكَّراً .. فأما فى تشهد الصلاة ، فيقال فيه معرَّفاً ومنكَّراً ... وكانوا يستحسنون أن يقولوا فى الأول : سلام عليكم ، وفى الآخر : السلام عليكم ، وتكون الألف واللام للعهد ، يعنى السلام الأول » . ومن هنا أتى من لا يُحسن العربية ، وقلّ اطلاعه على كتبها وفقهها . والاستحسان هنا منصبٌّ على ما كان فى التشهد . فإنه ، كما ترى ، عنى بالأول ، ما كان فى التشهد ، وبالآخر السلام الذى يُخرج به من الصلاة . وهذا شيء قال به بعض فقهائنا وأئمتنا استحساناً من عند أنفسهم أو مما رووا .

ولا تستغرب يا سيدى إذا وقفتَ يوماً على قول الأخفش : « ومن العرب من يقول : سلام عليكم ، ومنهم من يقول : السلام عليكم .. فالذين ألحقوا الألف واللام حملوه على المعهود ، والذين لم يلحقوه حملوه على غير المعهود » . ثم عاد فقال : « وفيهم من يقول : سلام عليكم ، فلا ينوّن » ؛ ثم ذكر العلة فقال : « حمل ذلك على وجهين : أحدهما حذف الزيادة من الكلمة كما يُحذف الأصل فى نحو « لم يكُ » ؛ والآخر أنه لما كثر استعمال هذه الكلمة ، وفيها الألف واللام ، حذفا لكثرة الاستعمال ، كما حذفا من اللهم فقالوا : لاهُمّ » . وكأنه جعل « السلام عليكم بالتعريف هى الأصل الذى كثر استعماله » .

فلا تستغرب إذا نظرت فرأيت أن الذى جاء فى مقالتى ليس خطأ ولا مجاراة على خطأ . ولا تستغرب إذا أنا قلت لك : إن أدعياء اللغة إنما يؤتون من سوء التقدير لما يقرأون ، ومما انطوت عليه قلوبهم من حب التعالم على الناس بشيء يدعونه ويلتمسون له الحجة ، حتى ما يدرك أحدهم فرق ما بين « سلام عليك » و « سلام » و « سلاماً » ، كما جاءت فى كتاب الله فى أكثر من ثلاثين موضعاً ، وبين ما جاء فى كتاب الله أيضاً من قوله : « والسلام على من اتبع الهدى » ، وقول رسول الله الذى تلقاه المسلمون عنه فى تشهد الصلاة وفى التحية .

واعلم يا سيدى أنى قنعت لك ولنفسى وللناس بالنقل مجرداً ، ولم أتبعه ببيان الفروق فى المعانى ، وما ينبغى وما لا ينبغى ، ولا تحرَّيت لك ولا للناس أن ألج بهم مَوالج فى دقيق العربية وغامضها تدل على أن من نقلتَ أنتَ عنه هذا القول قد تمحَّل وتهجَّم على ما لا علم له به ، وعلى ما لا يحسنه ولا يجيده !

فلا يغرنّك التبجح بالعلم ، ولا تقنع من المتحذلقين بما يسمونه « القاعدة » ، فلعلها باطل مزور ، وكذب مختلق ، واجتراءٌ على العربية هى من سوآته براء ، ولعل دليلهم يكون هو الدليل على بطلان ما يزعمون كما رأيت . وفى هذا مَقنع وهدًى .

والسلام عليكم ورحمة الله . محمود محمد شاكر



في الـــــريف...

للكاتب الفرنسي جي دي موباسان

بقلم الأستاذ محمد عبد اللطيف حسن

هناك في منحدر التل الواقع بقرب مجرى النهر، وفي كوخين حقيرين متجاورين، كان يقطن فلاحان يشتغلان بكد وعناء ليخرجا من الأرض الجدبة ما يقوم بأودهما وأود عيلتيهما الفقيرتين ...

وكان يقيم في كل كوخ منهما أربعة أولاد تتراوح أعمارهم بين الست سنوات والخمس عشرة سنة، وكثيراً ما كان هؤلاء الأولاد الثمانية يتجمعون بقربة من الكوخين ويظلون في لهو دائم ومرح مستمر من الصباح إلى الغروب.

وكان كلا الفلاحين متزوجا، وكلاهما ينجب الأولاد بنسبة واحدة وفي وقت واحد تقريباً! وكانت كل أم من الأسرتين تميز أولادها بصعوبة من بين أولاد الأم الأخرى، ولا سيما حينما كانوا يلعبون جميعاً أمامهما!

وكان الأبوان يخلطان في كثير من الأحيان بين أولادهما وبين أولاد الأب الآخر! وكم كان فكهما إذا أراد أحدهما أن يدعو ولداً من أولاده أن يردد على الأقل اسم ولدين أو ثلاثة قبل أن تنطق شفتاه باسم الولد الذي يريده!

وكانت عيلة توفاس تسكن في الكوخ الأول ولها ثلاثة أولاد وبنت، في حين أن عيلة فالنس التي كانت تقطن في الكوخ الآخر لها ثلاث بنات وولد.

ففي ظهر يوم من أيام شهر أغسطس الحارة، وقفت مركبة صغيرة أنيقة أمام هذين الكوخين، وقالت السيدة الصغيرة التي كانت تقود المركبة لزوجها الشاب الجالس بجوارها حينما وقع بصرها على الأولاد الثمانية الذين كانوا يلعبون وقتئذ أمام الكوخين:

— انظر يا هنري إلى هؤلاء الأطفال السعداء.

ثم أشارت بيدها إلى طفل منهم كان يتمرغ مع آخر على الأرض وقالت:

— ما أظرف هذا الغلام وهو يتقلب على الأرض بفرح وسرور ويمرغ نفسه في التراب مع زميله الآخر!!

فلم يجب زوجها على ملاحظتها بشيء على حين استطردت السيدة قائلة:

— كم أود أن أقبل هؤلاء الأطفال جميعا!!

ثم تنهدت تنهدة عميقة حارة صادرة من قلب يائس مكلوم وتابعت حديثها إليه فقالت:

— كم أشتهي ياهنري أن يكون لدينا ولد من هؤلاء الأولاد ولا سيما هذا الولد الواقف هناك بمفرده، وأظنه أصغرهم سنا.

قالت ذلك ثم قفزت من المركبة بخفة ونشاط وهرعت نحو الأطفال وأمسكت بالولد الذي أشارت إليه ورفعته بين ذراعيها وأخذت تقبل خديه القذرين وشعره المجعد المغفر بالتراب، ويديه الصغيرتين اللتين كان يحاول أن يخلص نفسه بهما من بين يديها اللتين كانتا تمسكان به بحنان بالغ ورفق عظيم، ثم تركته وعادت إلى المركبة منصرفة إلى حال سبيلها.

وفي الأسبوع التالي عادت هذه السيدة مرة أخرى وجلست تشاطر الأطفال ألعابهم كما لو كانت واحدة منهم! وقد أحضرت لهم معها في هذه المرة كمية من الكعك والفطائر والحلوى، وأخذت تقدمها إليهم وتوزعها عليهم بنفسها، بينما كان زوجها، واسمه هنري دوبرييه، ينتظرها في المركبة على مضض، وينظر إلى ما يجري حوله بشيء من الدهشة والغرابة.

وصارت تلك السيدة الرحيمة الطيبة القلب، تتردد على الكوخين من وقت لآخر، وكانت تحشو حقيبتها وجيوبها في كل مرة بالحلوى التي كان يتقبلها الأطفال منها بكل لذة وسرور.

وبمرور الأيام تعرفت مدام دوبرييه إلى كل من العائلتين المتجاورتين، وعرضت عليهما صداقتها التي كان لها أحسن وقع وأجمل أثر في نفوسهما الحزينة البائسة.

وفى صبـاح يوم نزل السيو هنرى دوبرييه من المركبة واصطحب زوجته معه ثم دخلا كوخ آل توفاسن دون أن يخاطبا فى هذه المرة أحداً من الأطفال الذين كانوا قد تعلقوا بهما وأحبوهما حباً جماً .

وكان توفاسن وزوجته موجودين فى الكوخ فى ذلك الوقت فدهشا لدخول مدام دوبرييه وزوجها الفجائى ، وقدما إليهما مقعدين نظيفين ، وانتظرا بفارغ صبر ما ستقوله لهما هذه السيدة التى بدأت حديثها وقتئذ بصوت خافت ولهجة مترددة :

— لقد أتينا لزيارتكما اليوم ، لأننا نريد أن نتبنى ولدكما الأصغر شارلوت . فذهل توفاسن وزوجته لقولها وعقدت الدهشة لسانيهما فلم ينبسا ببنت شفة . ولكن مدام دوبرييه لم تكترث لدهشتهما البالغة وتابعت حديثها فقالت :

— ليس لدينا أطفال ولهذا نود أن نتبنى ابنكما ، فهل تقبلان ذلك ؟

وهنا بدأت مدام توفاسن تفهم ما تعنيه مدام دوبرييه بهذا الكلام فقالت لها بلهجة لا تخلو من الإستنكار :

— هل معنى ذلك أنكما تريدان أن تأخذا ولدنا شارلوت منا ؟

فتدخل المسيو هنرى دوبرييه عند ذلك فى الحديث وقال :

— إن زوجتى لم تبين لكما غرضنا تماما ، فكل ما فى الأمر أننا نرغب فى أن نتبنى طفلكما الصغير ، وليس معنى ذلك أننا سنحول بينه وبين زيارتكما ، بل إننا سنترك له مطلق الحرية فى التردد عليكما فى أى وقت ، وإذا سلك معنا مسلكا حسناً — وهو ما ننتظره منه فى المستقبل — فسنجعله وريثنا الوحيد ، وحتى إذا أنجبنا أطفالا فى المستقبل فسنشركه مع أبنائنا فى الميراث . وإذا لم تثمر فيه تربيتنا وتعليمنا ، فإننا لن ندعه وشأنه كما يفعل بعض الناس ، بل سنعطيه حينما يبلغ أشده عشرين ألفاً من الفرنكات وسنودع هذا المبلغ باسمه فى أحد المصارف الكبيرة على أن يسحبه إذا بلغ سن الرشد ضماناً لحسن تصرفه فيه ، وزيادة على ما تقدم فإننا سنمدكما بمنحة شهرية قدرها مائة من الفرنكات مدى الحياة .

ولكن أبت عقلية مدام توفاسن البسيطة الساذجة إلا أن تفهم هذا القول على غير حقيقته ، وتؤوله تأويلا آخر ، واستبد بها الحنق والغضب عندئذ فقالت :

— أتريدان منا أن نبيعكما ولدنا شارلوت فى نظير جاهكما العريض ، وثروتكما الطائلة ؟ هذا محال ... محال ! !

وكان يبدو على محيا توفاسن — زوجها — علامات التردد والتفكير العميق دون أن ينبس طول هذه المدة ببنت شفة ، ولكن كان يلوح عليه أنه موافق على اعتراض زوجته بدليل أنه كان يهز رأسه من وقت لآخر موافقة منه وتأييداً لقولها ! !

وبدأ اليأس يتطرق حينئذ إلى نفس مدام دوبرييه فحولت وجهها شطر زوجها وقالت له بصوت مكتئب حزين :

— هنرى ! إنهما يمانعان فى أن نأخذ ولدهما شارلوت منا !

وحاول المسيو هنرى دوبرييه أن يقنع الزوجين العنيدين لآخر مرة فقال : فكرا جيداً فى مستقبل ولدكما وهنائه قبل أن ترفضا هذا الطلب نهائيا ...

فهزت مدام توفاسن كتفيها بسخرية واستخفاف وقاطعته بقولها : لقد فكرنا يا سيدى فى كل هذا من قبل ، والآن أرجو منكما أن تكفا عن الكلام فى هذا الموضوع ولا تحاولا إثارته مرة أخرى . وبينما المسيو هنرى دوبرييه وزوجته يهمان بالخروج إذ فتح باب الكوخ فى تلك اللحظة ودخل منه ولد صغير يشبه شارلوت إلى حد كبير حتى أن من يراهما لأول وهلة يظن أنهما توأمان ! فلما وقع بصر مدام دوبرييه عليه سألت زوجة توفاسن قائلة : هل هذا الولد الصغير ابنكما أيضاً ؟ ؟ . فأجاب توفاسن باقتضاب وهو يحك بيده لحيته البيضاء الكثيفة الشعر : كلا إنه جان فالنس ، ابن جارنا الآخر فالنس الذى يقطن فى الكوخ المجاور ، ويمكنكما أن تحاولا أخذه منه إذا استطعتما ذلك ! !

فرد عليه المسيو هنرى دوبرييه بحزم وإصرار وقال : سنحاول ذلك بكل تأكيد ! فابتسم توفاسن ابتسامة عريضة ماكرة وقال له وهو يهم بالوقوف لتوديعه : إذن أرجو لكما النجاح والتوفيق فى مهمتكما ! ! ولما دخلت مدام دوبرييه وزوجها الكوخ المجاور ، وعرضا على فالنس وزوجته اقتراحهما السابق ، رفض الزوجان هذا الإقتراح فى بادىء الأمر ، ولكن مدام دوبرييه وزوجها ما زالا بهما حتى أقنعاهما بوجاهة فكرتهما ، وصواب رأيهما ، ولا سيما حينما ذكرا لهما المبلغ الذى سيمنحانه فى كل شهر ! ! وبعد فترة قصيرة وجهت مدام فالنس حديثها لزوجها فقالت : ما رأيك فى هذا العرض السخى يا زوجى العزيز ؟ فأجابها زوجها وهو يفتل بيده الخشنة شاربيه الكثيفين : إننى لا أمانع فى ذلك يا عزيزتى ، وليس عندى أى اعتراض مطلقاً . وتكلمت مدام دوبرييه حينئذ عن مستقبل الطفل ، وسعادته ، وعن النقود

الكثيرة التي سوف يمد بها عائلته في المستقبل . فلما أتمت كلامها سألها فالنس وقد ارتسمت على شفتيه إبتسامة الرضا والإرتياح ، وشاعت الغبطة والسرور في قسمات وجهه الكثير التجاعيد : وهل سنأخذ المائة فرنك على يد أحد المحامين ؟ فأجابه السيو هنري دوربيه وهو يهز رأسه موافقاً : بلا شك ... بلاشك ! !

وأرادت مدام فالنس أن تنتهز الفرصة فتزيد هذا المبلغ قليلا فقالت لمدام دوربيه وهي تنظر من طرف خفي إلى زوجها نظرة ماكرة ذات معنى :

— أظن أن المائة فرنك ليست بالمبلغ الكافي في نظير انتزاع ولدنا منا لأنه سيصبح بعد بضع سنوات قادراً على العمل والكسب، ولذا يستحسن أن يكون هذا المبلغ مائة وعشرين فرنكا في الشهر !!

فوافقت مدام دوربيه على ذلك بعد قليل من التردد دون أن يخفى عليها جشع مدام فالنس وشدة طمعها !!

ولكي تثبت للزوجين الفقيرين مدى غناها وجودها ، فقد أخرجت من حقيبة يدها مائة وعشرين فرنكا وأعطتها لمدام فالنس التي تناولتها منها بمزيد من الغبطة والسرور ، في حين جلس زوجها هنري يكتب شروط الاتفاق بتؤدة وإمعان . فلما انتهى منه استدعى عمدة القرية وأحد الشهود فوقعا معه على العقد الذي أصبح قانونياً من كل الوجوه ...

وخرجت مدام دوربيه من الكوخ فرحة مسرورة لنجاح مسعاها ، وتوفيقها في مهمتها ، في حين كان الطفل الذي حملته بين ذراعيها يبكي بحرقة وحرارة لفراق والديه وتخليهما عنه ، ويحاول أن يخلص نفسه من بين ذراعيها، ولكن بلا فائدة ...

وشاهد توماس وزوجته رحيل الطفل جان بوجهين كالحين . والظاهر أنهما قد لاما نفسيهما على رفضهما التنازل عن ولدهما شارلوت ، وندما — بعد فوات الوقت — على ضياع هذا الكنز الثمين منهما ! !

ولم يسمع أحد من أهل القرية شيئاً عن جان فالنس لمدة طويلة من الزمن . وكان أبواه يذهبان في أول كل شهر إلى مكتب المحامي فيتسلمان منه المائة والعشرين فرنكا ثم يعودان إلى كوخهما آمنين مطمئنين ...

وساءت العلاقات حينئذ بين عائلة فالنس وبين عائلة توفاسن التي كانت تعيرها وتحط من شأنها أمام أفراد القرية لأنها فرطت في ولدها جان وباعته لمدام دوربيه وزوجها بيع السلع ! وكانت مدام توفاسن تمسك بولدها شارلوت من وقت لآخر وترفعه بين ذراعيها ثم تخاطبه بقولها :

— إنني لم أبعك ولن أبيعك يا ولدي العزيز بالرغم من أنني لست غنية كما تعلم ويعلم جميع الناس ...

وكانت لا تفتأ تردد هذه العبارات التهكمية وأمثالها في كل يوم بلهجة ساخرة وبصوت عال مسموع كان يصل في كثير من الأحيان إلى مسامع فالنس وزوجته ! وبلغ الغرور بمدام توفاسن إلى حد أنها كانت تزعم نفسها أعظم شأناً من أهل قريتها جميعاً ، وأرفع منهم منزلة وأعلاهم مقاماً ، لا لشيء إلا لأنها لم تبع ولدها شارلوت ! ولم ينب هذا الغرور عن أهل القرية أنفسهم ولم يفتهم أن يلاحظوا عليها ما كانت تدعيه من العظمة المصطنعة والخيلاء الكاذب ، ولكنهم كانوا مع ذلك لا يفتأون يرددون أمامها أنها سلكت مسلك الأمهات الطيبات القلب ! ! ولما بلغ شارلوت الثامنة عشرة من عمره كان يتباهى على أقرانه ، ويعتقد — كوالديه — أنه أعلى منهم مرتبة وأسمى مكانة لأن أمه المحبة لم تبعه كما باعت مدام فالنس ولدها جان ! ! وبينما كانت عائلة فالنس ترتع في بحبوحة العز والرفاهة ، كانت عائلة توفاسن لا تزال على ماهي عليه من الفقر المدقع والفاقة البالغة ! وكان يسار أسرة فالنس وغناها هما السر في هذا البغض ، والباعث على تلك الكراهية التي كانت تبديها عائلة توفاسن نحوها في كل وقت وفي أي مناسبة !! وبعد مضى مدة انخرط الابن الأكبر لمدام توفاسن في سلك الجندية ، بينما توفى ولدها الآخر إثر مرض خطير ألم به ولم يمهله إلا بضعة أيام . أما شارلوت فقد ظل في القرية ليساعد والده الذي كان قد بلغ من الكبر عتياً ، وليعين أمه العجوز وأخته الوحيدة على العيش ومكافحة صعاب الحياة . وكان شارلوت قد بلغ الحادية والعشرين من عمره حين وقفت في صباح يوم مركبة صغيرة جميلة أمام الكوخ المجاور ، ونزل منها شاب قوي وسيم الطلعة ، أنيق الثياب ، ثم دخل الكوخ بقدمين ثابتتين ، وخطوات متزنة واسعة ... وكانت مدام فالنس تغسل ثيابها في ذلك الوقت ، بينما كان زوجها الذي بلغ من العمر أرذله يستدفىء بنيران المدفئة . وقبل أن يفيق الوالدان من دهشتهما تقدم الشاب — ولم يكن إلا ابنهما جان فالنس نفسه — نحوهما وقال لهما وهو

بعد كلتا يديه لمصافحتهما : أسعدتما صباحا يا والدى العزيزين ...

فهب الأب من مكانه دهشاً مذهولا ، وعقدت المفاجأة السارة لسانه عن النطق ، بينما ألقت الأم بقطعة الصابون فى الوعاء الذى كانت تغسل فيه ثيابها لفرط اضطرابها ودهشتها وهرعت نحو ابنها الذى لم يكن قد زارها منذ أن اصطحبته مدام دوربيه معها ، وقالت له بصوت مضطرب مرتعش النبرات وهى تتأمله بزهو وإعجاب من قمة رأسه إلى أخمص قدميه : هل أنت حقاً ولدنا جان ؟ ؟ فضمها الشاب إلى صدره بحنان ورفق وقال لها وهو يضحك ملء شدقيه : نعم إننى ولدكما جان ! وقد جئت اليوم لزيارتكما بعد أن أصبحت أحد المحامين الذين يشار إليهم بالبنان وسأمكث فى ضيافتكما بضعة أيام . فقال له الأب بصوت يرتجف من فرط الانفعال وشدة الفرح والسرور : على الرحب والسعة يا بنى العزيز . وبعد أن استرد أنفاسه اللاهثة استطرد فى حديثه فقال : كم أنا سعيد بلقائك يا والدى ، ولا سيما بعد أن أصبحت رجلا كامل الرجولة ... ولما أفاق الأب والأم من دهشتهما صمما على أن يقدما ولدهما جان إلى أهل القرية جميعاً . فعرفاه أولا بعمدتها وقسيسها وناظر مدرستها . ثم عرفاه أخيراً بباقى أفراد أهل القرية الذين استقبلوه بحفاوة بالغة وسرور عظيم . وشاهد توفاسن كل هذا بعين دامعة تفيض بالألم والهم والعذاب ، ونفس حزينة تملأها الحسرة والندم على ما فات ! وقد تغيرت نظرته إلى الحياة بعد ما رأى جان فالنس فى ملبسه الأنيق وثيابه الثالية وشبابه الحيوى الفياض ، بينما هو لا يزال فى فقره المدقع وأسماله الرثة البالية ،

وفى المساء حينما اجتمع شارلوت بوالديه حول المائدة ، قال لهما بصوت باك حزين تخنقه العبرات : أظنكما رأيتما جان فالنس فى هذا الصباح وشاهدتما ما هو عليه الآن من وسامة الشكل وفخامة الثياب ؟ فأجابته أمه باكتئاب دون أن يفوتها تغير ابنها الفجائى غير المنتظر : نعم يا بنى ! لقد شاهدنا كل ذلك ! ولكننا لم نشأ أن نبيعك إلى مدام دوربيه وزوجها كما فعلت مدام فالنس وزوجها بابنهما جان ! لأننا رأينا أن فى ذلك عارا عليك وإثما فى حقك كما هو عار علينا وإثم فى حقنا أيضاً ... ولم ينبس الوالد أثناء ذلك بكلمة واحدة، بينما استمر الابن فى حديثه الساخط المؤلم فقال :

— إنها لغباوة منكما حقاً أن تدعا جان فالنس يذهب مع مدام دوربيه وزوجها بدلا منى ! وإنه لمن سوء حظى أيضاً أنكما لم تضحيا بى بسبب حنانكما وغروركما وأنانيتكما ... وهنا تدخل الأب فى الحديث فقال موجهاً كلامه لابنه : هل تلومنا الآن يا ولدى لأننا لم نشأ أن نفرط فيك كما فرطت مدام فالنس وزوجها فى ولدهما جان ؟ ولكن شارلوت لم يأبه لدفاع والديه بل هز كتفيه ساخراً واستمر فى ثورته فقال : نعم إننى ألومكما لأنكما فوتما على هذه الفرصة التى قل أن يجود الدهر بمثلها . وإن الآباء والأمهات أمثالكما كثيراً ما يجنون على أولادهم بجهلهم ، ويحطمون مستقبلهم بمثل هذا الحنان الضار ، والحب المرذول ، والأنانية المقوتة . فقالت له أمه وقد حز فى نفسها حديث ولدها المؤلم وثورته الصاخبة : هل هذا جزاء حبنا لك واحتفاظنا بك ؟ فأجاب شارلوت وهو يكاد يبكى من شدة الحنق والغيظ وقد اعتمد ذقنه براحة يده : كم أتمنى الآن لو لم أكن قد ولدت حتى لا أظل فى هذه الحالة المؤلمة التى أنا عليها الآن . وبعد لحظة سكوت قصيرة تابع حديثه إليهما فقال بلهجة أشد وأعنف من الأولى : إننى عندما رأيت جان فالنس فى صباح هذا اليوم وهو يترجل من مركبته الأنيقة الفاخرة جرت دماء الحقد والغضب حارة فى عروقى وقلت مخاطبا نفسى : (لو قبلت عائلتى ماعرضته عليها مدام دوربيه وزوجها من قبل ، لكنت الآن فى مركزه وظل هو فى مركزى) . قال ذلك ثم نهض من مقعده فجأة وقال لهما وشرر الغضب يتطاير من عينيه الدامعتين ، والحنق الكامن فى أعماق نفسه الثائرة يلوح على أسارير وجهه الحزين المكتئب : إننى لن أغتفر لكما هذه الغلطة ما حييت ، وقد استقر رأيى الآن على مغادرة هذه القرية إلى الأبد ، والنزوح إلى قرية بعيدة نائية لا يعرفنى فيها أحد ولا أعرف بها أحداً ، لأكسب فيها عيشى بعيداً عنكما وعن أهل هذه القرية جميعا . قال ذلك ثم فتح باب الكوخ بسرعة وهرع إلى الخارج بعد أن صفق الباب وراءه بشدة وعنف حتى لا يتمكن والداه من اللحاق به وإثنائه عن عزمه ، ثم سار فى الطريق مسرعا على غير هدى واختفى فى ظلام الليل الحالك السواد .

محمد عبد اللطيف حسن